أهل الكتاب والعيش المشترك

PASSIA

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية – القدس

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية في القدس **PASSIA** ، مؤسسة أكاديمية أهلية مستقلة، لا تسعى للربح أو التجارة أو المنفعة المالية، وغير مرتبطة بأية جهة حكومية أو حزبية أو تنظيمية أو طائفية، وتسعى من خلال برامجها إلى تعميم الفائدة من المعلومة الصحيحة والتحليل المنهجي وإعداد ونشر بحوث ودراسات أكاديمية وعقد دورات تدريب وتعلم في قضايا المجتمع المدني والشؤون الدولية والدبلوماسية وأيضاً تفعيل منبر الحوار الوطني والديني، وتوثيق المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني وإطارها القومي العربي وبعدها الإنساني والدولي.

إن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية يهدف إلى تشجيع ودعم المفكرين والمجتهدين والباحثين للتصدي لقضايا المجتمع والتطور الإنساني الحضاري على أسس العقيدة والإيمان ومن خلال بحوث وندوات ومؤتمرات لإثراء الحوار بين الناس لتطوير العلاقة الإنسانية والحضارية بين المؤمنين والموحدين وتوظيف هذا الجهد في إطار من الحرية الأكاديمية لإبراز التعددية الفكرية والمنهجية والإسهام في خدمة قضايا الوطن الفلسطيني.

ويأتي نشر هذا الكتاب
(أهل الكتاب والعيش المشترك)
ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية وبدعم من الممثلية الهولندية في رام الله.

جميع الحقوق © محفوظة للجمعية

الطبعة الأولى آب (أغسطس) 2011

The People of the Book
Common Roots and Shared Responsibilities

First Edition – August. 2011

The book has been kindly supported by

The Netherland Representative Office in Ramallah

Publication PASSIA

ISBN:978-9950-305-39-7

Tel.: 972-2-6264426، 6286566; Fax: 972-2-6282819
بريد إلكتروني: passia@passia.org
صفحة الإنترنت: http: //www.passia.org
PO Box 19545, Jerusalem

المحتويات

مقدمة ٥

صراع الحضارات ٧
د. مصطفى أبو صوي

نظرة الإسلام إلى الآخر ١٩
الشيخ جميل حمامي

الدين والدولة ٢٧
القس د. متري الراهب

فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة ٣٣
د.حسين الترتوري

العقيدة المسيحية والآخر (مجمع الفاتيكان الثاني) ٥١
الأب د. جمال خضر

الذمة والمواطنة ٦١
د. سعيد القيق

اثر الإسرائيليات في الأدبيات الإسلامية ٦٩
د. موسى البسيط

أهل الكتاب في العقيدة الإسلامية ٨٩
د. حافظ الجعبري

مقدمة

إن العيش المشترك في فلسطين يمثل صورة التعامل بين أبناء الوطن الواحد على اختلاف دياناته منذ العهدة العمرية، قبل أن يتم توليد المصطلح وقبل أن يفسد الإحتلال الصهيوني على الناس عيشهم، والإحتلال يحاول عن طريق الدعاية المغرضة والممنهجة أن يختلق صورة للمجتمع الفلسطيني قائمة على إضطهاد المسيحيين، مسلطا الضوء بعيدا عن ممارسات الإحتلال من اعتداء على الإنسان والحيوان، والشجر والحجر، حتى لا يربط الناس بين هجرة المسيحيين الفلسطينيين إلى الخارج وبين تضييقه على الناس في أمور معيشتهم وحقوقهم الإنسانية الأساسية، ومنها تقييد حرية السفر والتنقل من مكان إلى آخر، وإلغاء الهويات، وهدم البيوت، والتمييز ضد الفلسطينيين بغض النظر عن طبيعة الأوراق الثبوتية الي يحملونها.

يأتي هذا الكتاب ثمرة جهود ثلة من العلماء المسلمين ورجال الدين المسيحي من الكاثوليك والبروتستانت، ناقشوا من خلال أبحاثهم قضايا مختلفة تصب في فهم العلاقة بين أبناء الديانات المختلفة، على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وتناولوا قضايا صراع الحضارات، وحقوق الأقليات الدينية، والدين والدولة، وفقه الأقليات المسلمة، والعقيدة المسيحية والآخر، والذمة والمواطنة، والإسرائيليات، وأهل الكتاب في العقيدة الإسلامية.

قدم د. مصطفى أبو صوي بحثا بعنوان "تفكيك أطروحة صراع الحضارات والبديل الإسلامي"، حيث بدأ بمقدمة عن الصراع بين الشيوعية والرأسمالية ممثلا بالإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب الباردة التي انتهت حينما انهار الإتحاد السوفياتي. سارع فرانسيس فوكوياما إلى إعلان نهاية التاريخ وانتصار الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية، ولكن موقف صامويل هانتنجتون أكد على استمرارية الصراع ولكنه بين الحضارات المختلفة ثقافيا. ثم قام د. أبو صوي بتفكيك أطروحة هانتنجتون من خلال تحليل النص، ثم قدم البديل الإسلامي القائم على التعارف والتعاون والعدل والتعايش بين الحضارات والتحالف بينها كبديل لقرع طبول الحرب.

وعلى مستوى العلاقة العقدية، جاء بحث الشيخ جميل حمامي «حقوق غير المسلمين في ظل دولة الإسلام» موضحا لموقف الإسلام القائم على القرآن والسنة لكيفية التعامل مع أهل الكتاب، وهو موقف مؤسس على كرامة الإنسان، وحرية الإعتقاد، ثم ضرب أمثلة تاريخية على عدل الدولة الإسلامية مع أهل الكتاب وغيرهم من الأقليات الدينية. وقد عقد مقارنة بين النظرة الإسلامية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مبينا أفضلية النظرة الإسلامية كونها ربانية المصدر.

وفي بحث «الدين والدولة» تساءل القس د. متري الراهب فيما إذا كانت الدولة تحابي دينا على آخر، وعن تأثير الجماعات الدينية في سياسات الدولة، وعما إذا كانت هنالك بدائل مدنية بعيدا عن الحركات الدينية. وقد أكد على أن الدين والدولة ليسا بالضرورة على النقيض أحدهما من الآخر، وقد دعا إلى دولة مدنية تسود فيها فلسفة المواطنة والمساواة، ذلك لأن الدولة القطرية التي تلبس ثوبا دينيا تتناقض مع مفاهيم الحريات وحقوق الإنسان العالمية.

و في "فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة" بين الأستاذ الدكتور حسين الترتوري أن الأصل في أحكام الإسلام الثبات، وأن تغير الواقع قد يؤثر في الأحكام الشرعية، وأن الشريعة الإسلامية تتميز باستيعابها للمستجدات في حياة الناس وأنها تقدم الحلول لكل مسائلهم، وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وبالتالي ضرورة أن يلتزم المسلمون بشرع ربهم حتى لو كانوا يعيشون في دول غير إسلامية، ثم ضرب أمثلة واقعية من فقه نوازل الأقليات المسلمة.

وأما الأب الدكتور جمال خضر فقد قدم بحثا بعنوان «موقف العقيدة المسيحية والآخر: المجمع الفاتيكاني الثاني» بين من خلاله وحدة الجنس البشري، والمساواة بينهم في الكرامة، وكيف أن السياق الذي يعيش فيه المسيحي يؤثر في اختيار النص من الكتاب المقدس وفهمه حول كيفية التعامل مع الآخر، ومن هنا جاءت وثيقة «وقفة حق» التي أصدرها مسيحيون فلسطينيون عام 2009 والتي تتبنى الدولة المدنية. وقد نوه إلى أول نص رسمي إيجابي للكنيسة الكاثوليكية تجاه الإسلام والمسلمين في وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني.

وقام د. سعيد القيق في بحث "الذمة والمواطنة" بعرض مفهوم الذمة ,أنَّ الذميين هم المعاهدون من اليهود والنصارى وغيرهم من المقيمين إقامة دائمة في الدولة الإسلامية. ثم عقد مقارنة بين مفهوم المواطنة بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، وقد بين الأخطاء التاريخية التي وإن حصلت فإنها لا تنتقص من أهمية مفهوم الذمة، وشرح حقوق أهل الذمة وتتضمن حق المواطنة وحرية التعبد والحقوق الشخصية وكذلك بين الواجبات على أهل الذمة والتي تعني المشاركة في خدمة الوطن والدفاع عنه وعن تراثه وقيمه.

وعن "أثر الإسرائيليات في الأدبيات الإسلامية" تحدث د. موسى البسيط عن مصطلح "الإسرائيليات" الذي يعكس تراث أهل الكتاب في الأدبيات الإسلامية وبضمنها كتب التفاسير والحديث، ولكن غلبة القصص والخرافات اليهودية على النصرانية جعل مصطلح "الإسرائيليات" هو الغالب، وقد جاء ذلك نيجة لدخول كثير من اليهود والنصارى في الإسلام، ولإنفتاح المسلمين على أهل الكتاب، وانفتاح المسلمين على الإضطلاع على الثقافات الأخرى ضمن ضوابط، فمن الإسرائيليات المقبول والمردود والمسكوت عنه، وضرب أمثلة على كل ذلك.

وشرح د. حافظ الجعبري في "أهل الكتاب في العقيدة الإسلامية" موقف الإسلام من عقائد اليهود والنصارى، وقد بدأ بمقدمة تبين أن أصل الديانات واحد، وأن دين موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) هو الإسلام، ثم بين طبيعة الإختلاف العقدي بين الإسلام من جهة وبين أتباع اليهودية والنصرانية من جهة أخرى، وأنه لا التقاء بينهم إذ الفوارق جوهرية، ولكن هذا لا يمنع من وجود العهود والمواثيق بينهم والتي يجب على المسلمين أن يوفوا بها ما التزم الآخرون بها. وبين أسباب الإختلاف ومنها توسعة دور العقل خارج نطاقه و تقديس آراء العلماء.

****

تفكيك أطروحة "صراع الحضارات"

والبديل الإسلامي

د. مصطفى أبو صوي *

كان كارل ماركس (ت١٨٨٣) قد كتب عن حتمية انتهاء الرأسمالية وصولا إلى المرحلة الشيوعية حيث ينتهي الصراع، لأن سبب الصراع، وهو الفوارق الإقتصادية، يكون قد انتهى وتختفي الطبقات وفي النهاية تختفي الدولة. جربت عدة دول صورا معدلة من فكر ماركس الإشتراكي مثل اللينينية في الإتحاد السوفياتي، والماوية في الصين، ومع أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية دخل في تحالفات عسكرية مع الإتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية، وهذا في حد ذاته موقف متناقض، إلا أن التحالف لم يمنع ظهور الصراع بين القطبين الكبيرين فيما عرف بالحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١) والتي لم تنته إلا بسقوط الإتحاد السوفياتي. بالإضافة إلى ضغط الولايات المتحدة المستمر، كان مفتاح التغيير الداخلي هو إصلاحات الرئيس السوفياتي ميخائيل جورباتشوف المعروفة ب «البيريسترويكا» والإنفتاح الذي سمي ب «الجلاسنوست». إنهار الإتحاد السوفياتي وتفتت، وانتقلت دول كانت محسوبة على دول المعسكر الشرقي وحلف وارسو، بين عشية وضحاها، إلى المنظومة الرأسمالية الغربية. إنهزمت الشيوعية، فهل كان هذا انتصارا نهائيا للرأسمالية؟

سارع فرانسيس فوكوياما وهو من علماء السياسة الأمريكيين إلى إعلان انتصار الديمقراطية الليبرالية والإقتصاد الرأسمالي الحر وذلك في كتابه "نهاية التاريخ والرجل الأخير"، وهو توسعة لمقال كان قد كتبه عام ١٩٨٩ عن "نهاية التاريخ" في مجلة "National Interest". إعتبر فوكوياما أن الذي انتهى ليس فقط الحرب الباردة، بل التاريخ من حيث الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه في تطور الفكر الإنساني وهو الديمقراطية الليبرالية الغربية والتي نادى بعالميتها. بقي أن نقول أن فوكوياما خفف من غلوائه، وابتعد عن دوائر المحافظين الجدد الذين ارتبط بهم من قبل، وعدل عن أطروحته في كتاب كتبه عام ١٩٩٥ بعنوان Trust: Social Virtues and Creation of Prosperity حيث فسح مجالا لوجود الثقافة، وبالتالي وجود الأخلاق في الإقتصاد.

لو تسنى لفوكوياما أن ينتظر حتى ظهور الأزمة المالية العالمية والتي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية في سبتمبر ٢٠٠٨ والتي أدت إلى انهيار كثير من البنوك ودفعت الحكومة الأمريكية في النهاية إلى تبني خطة إنقاذ مالي بمقدار ٧٠٠ مليار دولار، حيث قامت الحكومة الأمريكية بمساعدة بنوك على شراء بنوك منهارة، وقامت الحكومة أيضا بشراء ديون هالكة، وباختصار قامت الحكومة بالتدخل المباشر الذي يناقض مفهوم الإقتصاد الحر أو الليبرالية الإقتصادية

* أستاذ الفلسفة – جامعة القدس

Laissez–faire، لو تسنى له أن ينتظر لما قال بانتصار الديمقراطية الليبرالية والإقتصاد الرأسمالي الحر. لم تقم الحكومة الأمريكية بحل الأزمة المالية من جذورها. لقد قامت بإنقاذ النظام المالي والمؤسسات التي ستؤدي إلى أزمة أخرى، ربما لا ينفع معها الإنقاذ حينئذ. ما تم هو عملية ترحيل لهذه الأزمة إلى المستقبل.

كان صامويل هانتنجتون (ت٢٠٠٨) أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد قد رد على أطروحة «نهاية التاريخ» أولا في مقال كتبه في مجلة Foreign Affairs عام ١٩٩٣، ثم بعد أن احتدم النقاش حول هذا المقال، أصدر كتابا موسعا حول نفس الموضوع بعنوان "صراع الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي". كان إدوارد سعيد (ت٢٠٠٣) قد نبه إلى أن عنوان المقال "صراع الحضارات؟" انتهى بعلامة استفهام وأن عنوان الكتاب يخلو من علامات الإستفهام. لقد بدا صامويل هانتنجتون واثقا من أطروحته هذه المرة!

يعتمد صامويل هانتنجتون في أطروحته عن "صراع" أو "صدام الحضارات" أسسا جديدة للصراع في المستقبل مبنية على الإختلاف الثقافي والديني لعالم ما بعد الحرب الباردة، والذي تفردت الولايات المتحدة الأمريكية فيه بالهيمنة العالمية، قطبا أوحدا، أو هكذا يظن. إن هذه الأطروحة تستبدل الحدود السياسية للدول القطرية في قضايا الصراع بحدود امتداد الحضارات وهي الحضارة الغربية والأرثوذكسية والإسلامية والهندية والصينية واليابانية والافريقية وأمريكا اللاتينية.

إن أول تساؤل في هذا الموضع يجب أن يكون عن كنه الحضارة وعلاقة الحضارات ببعضها البعض على مستوى الفعل الحضاري وعن علاقات القوة، واستقراء نماذج تاريخية عن طبيعة العلاقة بين هذه الحضارات، والأهم من هذا كله، ما هو التصور الإسلامي حول السلم العالمي والتعدد الثقافي والعلاقة مع الآخر، على ألا يكون هذا التصور رد فعل على أطروحة هانتنجتون أو على التاريخ الكولونيالي الغربي المعاصر الذي استولى على الخيرات ودمر المقدرات وقتل الأبرياء وقسم الشعوب إلى دويلات وجعل عليها أنظمة ترتبط بإملاءات الغرب ويسهل السيطرة والتأثير عليها. فالمطلوب هو التأصيل من الكتاب والسنة، حتى ننتقل من ردود الأفعال إلى وضع تصور يليق بخلافة الإنسان في الأرض، ولا بد للرسالة الخاتمة أن تكون أنموذجا صالحا للتعايش في كل زمان ومكان.

وطرح هذا النموذج السلمي هنا لا يعني أبدا القبول بنتائج الحقبة الكولونيالية والتغاضي عنها، فلا يمكن إسبال المشروعية على الباطل بأثر رجعي، ولا بد من تحقيق العدل. إن اغتصابا حدث عام ١٩٤٨ لا يمكن اعتباره نكاحا بعقد صحيح عام ٢٠١٢. إن مضي الزمن لا يغير حقيقة ما حدث.

إن الحديث عن صراع الحضارات يفترض وجود إرادة مستقلة لدى هذه الحضارات تقرر الدخول في الصراع حينا وتتركه حينا آخر، وهذا مما لا يقول به عاقل، إذ لا زالت الدول القطرية هي

أساس العلاقات الدولية، ولا بد من وجود أشخاص يدفعون باتجاه المواجهة العسكرية مع الآخر، وهو قرار يتخذه في العادة رأس الهرم السياسي في دولة معينة، وقد يحتاج إعلان الحرب رسميا إلى موافقة برلمان تلك الدولة، ويمكن الدخول في مواجهة عسكرية دون الإعلان الرسمي عن الحرب. والدولة التي تدخل في مثل هذا المعترك تنظر إلى مصالحها الخاصة من منظور مادي، فأين الحضارات المختلفة في حروب دول أوروبا الغربية بعضها ضد بعض؟

إن الإفتراض الثاني هو أن الحضارات مستقلة ومختلفة تماما عن بعضها البعض بحيث يغيب المشترك الذي ينتقل من حضارة إلى أخرى. إن ما هو أفضل من التقسيم الحضاري هو التأكيد على الحضارة الإنسانية، وأنه لن ينتهي التلاقح بين فروع الحضارة الإنسانية إلا حينما ينتهي الوجود المتعدد لهذه الحضارات، ولا أرى التعدد في بعض صوره إلا باقيا، وذلك قوله تعالى:

«وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...»[١]

لقد انتقلت العلوم والمعارف من الحضارة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية التي نقحتها وطورتها وبنت عليها ما نفع الناس في أماكن وأزمنة مختلفة، بل عبرت تلك العلوم والمعارف إلى أوروبا عبر أكثر من مركز حضاري إسلامي مثل الأندلس، وأنقذت أوروبا من ظلمات العصور الوسطى ومهدت الطريق أمام النهضة الأوروبية كما ذكر جان جاك روسو في مقالته التي تقدم بها إلى أكاديمية ديجون عام ١٧٥٠م، ولكن روسو قام بِعَضِّ يد الحضارة الإسلامية الممتدة إليه، وهذه إشارة مبكرة للإسلاموفوبيا الأوروبية. ثم أصاب العالم الإسلامي ردة حضارية وتأخروا عن الغرب كثيرا، وما ذلك إلا لتدمير المغول لمركز الإشعاع الحضاري في الشرق في بغداد عام ١٢٥٨م حيث دمروا المكتبات وقتلوا القيادة السياسية والفكرية، ثم إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس في الغرب وأفول شمس الحضارة الإسلامية هنالك عام ١٤٩٢م في عملية تطهير ليس لها في التاريخ مثيل إذ تم طي صفحة قرون من العطاء والفكر والعلم والحضارة كأنها لم تكن، ولم يشفع للمسلمين أنموذج التعايش والتسامح الذي تبنوه بين أبناء الديانات الثلاث، ولم يتم معاملتهم بالمثل.

ثم ما لبث الإستعمار الكولونيالي أن فتت العالم الإسلامي و اقتسمه وسلب خيراته وظل حتى أيامنا هذه شيمته التدمير والتخريب كما حدث في العراق على يد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها. لقد تم عمليا تقسيم العراق، وقتل مئات الآلاف من أهله، وأغرق في بحر من الدم، وأعيدت عجلة الزمن فيه إلى الوراء، أو قل توقف الزمن فيه حينما تم حرق أطفال ونساء ملجأ العامرية! ثم ظلت الحضارة الغربية في تصاعد حتى عاد المسلمون يأخذون عنها مرة ثانية. ولو أننا أدخلنا الحضارات الأخرى إلى المعادلة، مثل الحضارة الهندية والصينية، لأصبحت الصورة

مركبة أكثر فأكثر، فأين استقلالية الحضارات بعضها عن بعض، بل هنالك علاقة متشابكة لا يفسرها أنموذج صامويل هنتنجتون الذي لا يرى البعد الإنساني الذي ما انفك يطل بوجهه من خلال تنوع الحضارات، ولذلك فإن الحديث عن حضارات مختلفة لا بد وأن يكون قد أطلق على بعض ما في هذه الحضارة أو تلك، ولذلك يجب التنبه إلى المجاز في الخطاب المتعلق باستقلال الكيانات الحضارية، والحذر من تصوير هذه الحضارات كوحوش لا يوجد في غريزتها شيء سوى الإنقضاض على بعضها البعض.

إن الفرضية الثالثة أن لكل حضارة حدود جغرافية معروفة المعالم جيدا، وهي من وجهة نظر هانتنجتون حدود الصدام الحضاري. إن العالم "الغربي" يضم أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا ومناطق أخرى وهي تبعد آلاف الأميال عن بعضها البعض، شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، ولا تشكل جسما واحدا! إن المسلمين أنفسهم ينتمون اليوم إلى ثقافات وحضارات مختلفة، فهنالك العرب ولكن الغالبية العظمى من المسلمين هم من العجم، فمنهم الهنود والصينيون والمالاويون (الأندونيسيون، الماليزيون، الفلبينيون، البروناويون، الفطانيون في تايلاند...) ومنهم الغربيون من السكان الأصليين من غير المهاجرين، ومنهم شعوب دول موجودة في إفريقيا الوسطى وإفريقيا الغربية...الخ.

إن الفرضية الرابعة أن الصدام بين الحضارات طبيعي وهي فرضية مبطنة إذ استخدم هانتنجتون اللغة العلمية التي تصف "خطوط الصدع" التي تتسبب بالزلازل في وصف الحضارات المختلفة، وكأنها صفائح طبيعية لا تلبث أن يحدث بينها إحتكاك تماما كما في الطبيعة، فينتج عن ذلك الإحتكاك دمار وقتل. يقف الإنسان عاجزا أمام الكوارث الطبيعية، فكأن هانتنجتون أراد أن يرمي إلى حتمية الزلازل الحضارية، وشتان بين الطبيعة وفعل الإنسان السياسي حيث يتبع الإرادة، بل نعلم تماما أن الإنسان لا زال يحاول، ليس منع الزلازل، وإنما يحاول تصميم إنشاءات تتحمل إلى حد ما آثارها المدمرة، فلم لا يكون هذا حال علماء السياسة أن يحاولوا منع الصراع، بدلا من الإكتفاء بالتحليل "الموضوعي"، أو بناء نماذج تدفع وتشجع على الصراع.

إن من المفروض أن يكون المبنى الأقوى ضد الزلازل السياسية بين الدول القطرية هو الأمم المتحدة، ولكن اختراع هانتنجتون للاعبين جدد على الساحة الدولية، غير الدول القطرية، يجعل هذه المؤسسة غير ذات صلة. ثم هل يمكن إيجاد مؤسسة دولية لتمثيل الحضارات وتقنين التعامل بينها؟ إن المطلوب بدل أسطورة صراع الحضارات إيجاد الإرادة السياسية لتطبيق القانون الدولي على جميع الدول بلا استثناء، وحتى يكون هذا الأمر ممكنا، لا بد من تغيير تركيبة مجلس الأمن فهو مؤسسة غير ديمقراطية، فلا بد من إلغاء حق النقض (الفيتو) فقد تسبب هذا "الحق" في إدامة الظلم في أماكن مختلفة في العالم، ولا يمكنني إلا أن أذكر فلسطين، كيف أن هذه المؤسسة، ومن قبلها "عصبة الأمم"، تسببت في إيجاد الإستعمار الصهيوني، وحمته وجعلته فوق القانون الدولي.

إن الفرضية الخامسة أن أبناء كل حضارة لديهم موقف واحد رئيس تجاه الآخرين قائم على العداء لاختلاف الثقافة، فيفترض أن حوالي ملياري مسلم ليس لهم إلا موقفاً واحداً ضد الحضارات الأخرى، والسؤال لماذا لا يوجد في الفكر الإسلامي شيء ضد أمريكا اللاتينية مع أنها تعتبر صاحبة حضارة متميزة حسب هانتنجتون؟ أين تجد في الفكر الغربي "البروتستنتي–الكاثوليكي" العداء للهند "الهندوسية" ذات المليار إنسان؟ كانت الهند زعيمة من زعماء حركة عدم الإنحياز، ثم اقتربت من الإتحاد السوفياتي إبان الحرب الباردة، وهي اليوم حليف استراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية؟ الا يمكن أن يكون الموقف مبنيا على سياسات خارجية ظالمة، فإن تغيرت السياسات تغيرت المواقف؟

إن الفرضية السادسة أن الإقتصاد، أي البعد المادي، لا يلعب دورا في الصراع بسبب الإقتصار على البعد الثقافي. نعم، إن البعد الإقتصادي ليس كل شيء، ولكن سحب البعد الإقتصادي من معادلة الصراع يغيب سببا رئيسا من أسباب الصراع في العالم، وهو الصراع على الموارد الطبيعية ومنها النفط على سبيل المثال لا الحصر، فلا يمكن لعاقل أن يغض الطرف عن هذا البعد في تفسيره لتاريخ الإستعمار، وما احتلال العراق الرابض على بحيرات من النفط عنا ببعيد، فقد ثبت أن الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير كانا يعلمان أنه لم تكن هنالك أسلحة دمار شاملة في العراق، ولم يكن هنالك تنظيم للقاعدة. وكذلك لا يمكن التغافل عن الدور الذي لعبته إسرائيل في التسبب في هذه الحرب، تماما كما تفعل في إيقاد نار الحرب على إيران الآن. وهنا نجد أن مصالح الدول تلتقي على الرغم من مكوناتها الثقافية المختلفة، فتلتقي الإمارات العربية "المسلمة" والولايات المتحدة "المسيحية" مع إسرائيل "اليهودية" في نفس الموقف السياسي تجاه إيران، فالإمارات لم تغلق ملف جزر "أبو موسى" في الخليج العربي، وإسرائيل تريد أن تظل القوة النووية الوحيدة في المنطقة وأن تستمر في احتلالها وتوسعها، وأمريكا لديها اعتبارات كثيرة منها إنتخابات الرئاسة الأمريكية والتي تعتمد كثيرا على دعم اللوبي الصهيوني (إيباك) والذي يترجم دعمه للمرشح الرئاسي إلى دعم وخدمات لإسرائيل، ولكن أيضا دور إيران في العراق وأفغانستان المرشح للتغيير إذا ما هوجمت . إن ذنب إيران هو أنها دولة تعمل خارج الإطار الذي تسمح به أمريكا منذ الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، والتي جاءت بنظام أخرج إيران من خدمة أمريكا في حربها الباردة مع الإتحاد السوفياتي. لم تكن القضية أبدا أن إيران شيعية، أو سيطرة الخميني والزعامة الشيعية من بعده على مقاليد الحكم عن طريق ولاية الفقيه، فإن هذا كله كان يمكن للولايات المتحدة الأمريكية أن تتقبله أمرا واقعا وأن تتعايش معه لو أن إيران الخميني كانت كإيران الشاه. لقد تفاهمت أمريكا في وقت من الأوقات مع كل الدكتاتوريات في المنطقة مع علمها بخروقات فاضحة في مجال حقوق الإنسان.

إن الدول ليست كائنات أخلاقية ابتداء، وهي تعكس سياسات قد تتغير وتتبدل مع بقاء اسم الدولة كما هو. والعلاقات بين الدول تتبع المصالح ولا صداقة بينها، ولكن القائمين عليها لن يغامروا بالدخول في صدام عسكري إذا كان هنالك توازن في التسلح النووي، ولهذا لم يحصل صدام مباشر بين الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية ، أو بين أمريكا وروسيا زعيمة الحضارة

الأرثوذكسية، ولهذا لم تحصل مواجهة مباشرة بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين زعيمة الحضارة الكونفوشيوسية، بل إن الصين تستثمر في أمريكا وتمد الحكومة الأمريكية بقروض مالية سخية حيث بلغت الديون الكلية على الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من تريليون دولار. وكذلك الأمر بين الهند والباكستان فإن وصول كلا البلدين إلى القنبلة النووية كان عامل استقرار بينهما. هذه ليست دعوة ولا تبريرا لسباق التسلح النووي، ولكنه تساؤل عن ازدواجية المعايير في التعامل مع هذا الملف. إن القول بأن دولة ما في الشرق «المصنوع» يجب ألا تحصل على السلاح النووي لأن لديها قيادة سياسية لاعقلانية هو استمرار للنظر من خلال عدسة الإستشراق والتي تصبغ «الشرق» وبالتالي المسلمين باللاعقلانية، فهل كان قرار ضرب اليابان بالأسلحة الذرية يدل على عقلانية أم لاعقلانية الغرب؟ بل يدل على عقل حي وقلب ميت.

إن أطروحة هانتنجتون لا تعدو كونها غطاء نظريا لاستدامة الصراع مطلقا، وهي نبوءة سياسية يسهل تمريرها في قنوات اليمين السياسية، سواء في أمريكا أو أوروبا. لقد حرم جورباتشيف الغرب من العدو التقليدي، فبدلا من إحالة جيوش الإمبراطورية الأمريكية المنتشرة في الأرض على التقاعد، وهذا لا يرضي الصناعات العسكرية وأروقة الحكم، تم إختراع عداوة جديدة، وبالتالي أعداء جدد، بناء على أسس مغايرة لما سبق، وهي بالفعل لن تطبق، إذا ما طبقت، إلا على الضعفاء، وهو استمرار للظلم تحت غطاء الإختلاف الثقافي.

إن للصين قوة انتاجية تنافس أمريكا في عقر دارها، وكذلك للهند والبرازيل دور صاعد، ومما لا شك فيه أن العقود القادمة ستظهر مراكز قوة بديلة، بكل أبعادها، في الشرق والجنوب الشرقي، وستضطر الولايات المتحدة الأمريكية للتسليم بالأمر الواقع الجديد الذي لن تكون فيه الدولة القطب كما هو الحال الآن. إن أمريكا تصرفت كإمبراطورية وقد ترهلت، ويبدو أنه قد حان الوقت لتسليم الراية لغيرها، وهذا لا يبشر بالخير بالضرورة ، فالصين وروسيا تقومان بحماية نظام الرئيس السوري بشار الأسد من قرارات مجلس الأمن التي قد تدفع باتجاه التدخل العسكري، وبالتالي سيستمر الأسد في ارتكاب المجازر وسفك دم الأبرياء.

التصور الإسلامي للتعددية الثقافية:

لقد تم طرح شعار «لتعارفوا» كأطروحة بديلة لأطروحة صدام الحضارات وأقيم العديد من المؤتمرات الإسلامية تحت هذا الشعار الذي انضوى تحت لوائه كبار العلماء المسلمين، مع أن هنالك قلة من الناشطين المسلمين قبلوا أطروحة هانتنجتون، ولكنهم لم يفكروا بهذه الأطروحة من قبل من تلقاء أنفسهم. والتعارف حال إيجابية على النقيض من الإصطدام والصراع والإحتراب.

ولعله من هذا المنطلق، نذكر بالهدف من التنوع في الشعوب والقبائل وهو التعارف:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[٢]

أما محور التعارف فهو كل فعل إيجابي مثل العمل المشترك لجسر الهوة الإقتصادية بين الشمال الذي يستأثر بمعظم خيرات الكرة الأرضية والجنوب الذي يضم معظم أهل الكرة الأرضية ولكنه يعيش في جله على النزر اليسير، والعمل ضد الإحتباس الحراري وتشجيع مصادر الطاقة البديلة الصديقة للبيئة، والعمل على محو الأمية ومحاربة الأمراض وتوفير مياه صالحة للشرب وكذلك شبكات الصرف الصحي، إذ هنالك أكثر من بليون إنسان يعاني في كل مجال من المجالات السابقة. ولو أن الأموال التي تنفق على السلاح صرفت على المشاريع السابقة لدخل كل طفل في العالم إلى المدرسة، وكوننا نتحدث من منطلقات إسلامية لا يعني أبدا أن شعوب الدول الإسلامية قد تخلصت من الأمية، فنصف العرب من الأميين فأين سياساتهم وخططهم الإستراتيجية، وأين ذهبت أموالهم، وكيف نبرر فروق الدخل القومي بين الدول القطرية الغنية من جهة والفقيرة من جهة أخرى، وأين المواساة إن لم تكن المساواة؟ إن الدولة القطرية تقوم على التمييز لا محالة.

الإستخلاف في الأرض لا يستهدف الصراع:

حينما أخبر رب العزة (جل وعلا) الملائكة الكرام باستخلاف الإنسان في الأرض، تساءلت الملائكة عن طبيعة هذا الإستخلاف ظانين أن هذا الخليفة سيجعل من سفك الدماء والإفساد في الأرض نمطا سائدا، ولكن الله (سبحانه وتعالى) بين لهم أنهم لا يعلمون علمه:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [٣]

إن المطلوب بعد تحقيق العبودية لله جل وعلا، بل هو منها، ألا يفسد الإنسان المستخلف في الأرض، فيحافظ عليها ويعمرها ولا يدمرها وتكون علاقته بها وبالكون علاقة ارتفاق، ويراعي قدسية الحياة وحرمة سفك الدماء:

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ [٤]

وقد جاءت الآية السابقة في سياق قصة ابني آدم، وكانا ينتميان إلى نفس الثقافة وكان أمام كل واحد منهما نصف الكرة الأرضية لينتشر فيه دون منافس، ولكن الشيطان سول لأحدهما قتل أخيه، فالعدو المطلق للإنسان هو الشيطان، وأما الإنسان فيمكن أن يتحول من عدو إلى صديق:

وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [٥]

ومن الواضح أن الخطاب القرآني ضد الحرب كموقف مبدئي، إلا إذا فرضت، فلا يسع المسلمين إلا الدفاع عن أنفسهم، وأما الحرب فإن الله عز وجل بين إرادته فيها:

...كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ... [٦]

ولمنع الحرب لا بد من قوة تردع من تسول له نفسه الإعتداء، ويقدر هذه القوة أهل الخبرة والإختصاص، والقرآن يشير إلى النتيجة المنطقية بعد الردع، وهي حالة السلم:

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ* وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٧]

ومع ذلك، فمن سنن الله في الكون سنة التدافع بين الناس، وذلك لمنع الفساد في الأرض من الإستشراء:

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [٨]

وأما إختلاف الناس عن بعضهم البعض فمرده إلى العقائد، و«العرق»، وما دون العقائد من أمور الثقافة كاللغة، والمال، فأما الإختلاف العقدي فقد ذكر القرآن الكريم أنه:

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٩]

وأما إختلاف اللغات وما يتبعها، وكذلك الإختلاف "العرقي" وما يتبعه من اختلاف الهيئات، فهي آيات من عند الله تبارك وتعالى، تستدعي الحمد والتسبيح والتكبير، لا التمييز وإساءة المعاملة:

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ[١٠]

وأما المال، فقد فرض التشريع الإسلامي صورة لتوزيع الثروة حتى لا يظل المال يتداول بين الأغنياء، فيحرم منه الفقراء:

مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[١١]

وما يصح داخل الدولة الواحدة يصح بين الدول، فلا يجوز أن تتراكم الأموال في دول وتحرم غيرها، ولا يجوز استغلال فقر الدول لتوريطها في ديون خارجية، ومن أعظم الظلم أن تدفع الدولة المعدمة أموالاً إلى الدول الغنية، مثلما تدفع هايتي أمولا إلى فرنسا! فهل يعقل أن تدفع المستعمرات السابقة إلى الدول الكولونيالية تعويضات؟ أولا يتوجب أن يكون الأمر معكوسا؟ لا بد من إيجاد برنامج يساعد الدول الفقيرة، وإن كان لا بد من قروض، فلتكن قروضا حسنة، أي دون ربا، وعلى ألا تجد هذه القروض طريقها إلى جيوب الساسة فيستشري الفساد.

إن رسالة الإسلام إلى البشرية هي رسالة التوحيد، وقد وصف القرآن الكريم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، خاتم الأنبياء، بأنه رحمة للعالمين، وهذه الرحمة تتناقض مع دعوات الصراع وقرع طبول الحرب وتمتع الشمال على حساب الجنوب، أو طغيان الأغنياء على حساب الفقراء، فكل نبي كان يشكل ثورة على الظلم في زمانه، ويستمر أتباعه في الثورة على الظلم في أزمانهم المختلفة، لأن الله عز وجل كرم الإنسان:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا[١٢]

لقد عاش المسلمون ثلاث عشرة سنة في مكة في بداية البعثة، فقتل الوثنيون من أهل مكة بعض المسلمين، وعذبوا آخرين، وقاطعوا المسلمين لمدة ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، ولحقوا بهم إلى المدينة ليبيدوهم في أكثر من موقعة، بل قتلوا من المسلمين عددا كبيرا في أكثر من معركة، ومع كل هذا فقد عفا عنهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد فتح مكة سلما. ولو قارنا بين هذا الموقف النبيل وتدمير أريحا المزعوم على يد يوشع بن نون في التوراة كما هي عليه اليوم،

لعرفنا الفرق بين العقلية التي تدفع إلى السلم العالمي والعقلية التي تدفع إلى الإبادة:

وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف[١٣]

إن الحوار مطلب في القرآن الكريم، وهو مطلب لغيره لا لذاته، يراد منه إيصال كلمة الحق والدفع باتجاه فعل الخير، وكما جاء في القرآن الكريم:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [١٤]

وقد أصبحت «كلمة سواء بيننا وبينكم» عنوانا وشعارا لرد ٣٨ عالم ومفكر مسلم ردوا بعد شهر على محاضرة البابا بندكتوس السادس عشر التي ألقاها في ١٣ أيلول ٢٠٠٦ في مدينة ريغنسبرغ الألمانية، وقد رمت محاضرة البابا الإسلام والمسلمين بالعنف واللاعقلانية عن طريق سرد حوار من رواية تاريخية، أي عن طريق الإقتباس، وشكلت «كلمة سواء بيننا وبينكم» التي رعتها مؤسسة آل البيت الملكية في الأردن نموذجا إيجابيا للتعامل مع أطروحات الإسلاموفوبيا بغض النظر عن مصدرها، لتصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام ولعرض الرؤية الإسلامية للإنسان والكون والحياة بعيدا عن الخطاب الإقصائي الذي تشكل محاضرة البابا مثالا عليه، وبعيدا عن عنف الشارع الذي لا يساعد على الإطلاق في إيصال رسالة الإسلام، بل يشكل عائقا حقيقيا. وقد بينت «كلمة سواء بيننا وبينكم» أنه لا يمكن أن يقوم سلم حقيقي في العالم دون أن يكون هنالك سلم بين المسلمين والمسيحيين الذين يشكلون معا أكثر من نصف سكان العالم.

إن القرآن الكريم والسنة المشرفة يدفعان باتجاه السلم العالمي القائم على الحق والعدل، ويدفعان باتجاه التعارف بين أهل الأرض على سبيل فعل الخيرات، وهو ما يسمى اليوم بحوار الحضارات، دون استعلاء أو استقواء، من موقف المساواة بين المشاركين في الحوار، فالحقيقة ليست حكرا على مفكري الغرب، فيمكن أن يخطئوا كما أخطأ صامويل هانتنجتون.

****

الهوامش

١ سورة هود، الآيات ١١٨-١١٩
٢ سورة الحجرات، آية ١٣
٣ سورة البقرة، آية ٣٠
٤ سورة المائدة، آية ٣٥
٥ سورة فصلت، آية٣٤
٦ سورة المائدة، آية ٦٤
٧ سورة الأنفال، الآيات ٦٠-٦١
٨ سورة البقرة، الآية ٢٥١
٩ سورة البقرة، آية ٢٥٦
١٠ سورة الروم، آية ٢٢
١١ سورة الحشر، آية ٧
١٢ سورة الإسراء، آيه ٧٠
١٣ سفر يوشع: الإصحاح ٦:٢١
١٤ سورة آل عمران، آيه ٦٤

حقوق غير المسلمين في ظل دولة الإسلام

الشيخ جميل حمامي *

الإسلام دين رحمة للعباد كلِّهم: مسلمين وغير مسلمين، قال تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين»[1]، يشهد بذلك الممارسة العملية التي أبداها المسلمون تجاه غير المسلمين عبر التاريخ، وشهادة علماء الغرب انفسهم، يقول ول ديورانت: «لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزردشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لعلمائهم وقضائهم وقوانينه».
وتتبع تلك المعاملة الحسنة من ركيزتين من الدين الإسلامي:

أولاً: حفظ كرامة الإنسان

ثانياً: كفالة حرية الاعتقاد

ودحضاً للتهم والمفتريات التي يوجهها أعداء الإسلام للإسلام اليوم، جاءت هذه المقالة في تفصيل حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، لتكون نوراً لمن أراد أن يبحث في هذا المجال.

أصناف غير المسلمين في المجتمع الإسلامي:

أولاً: أهل الذمة: وقد سمّوا بهذا الإسم بمعنى (أهل العهد والأمان) لأنهم يعيشون في ذمة المسلمين وأمانهم وعهدهم على وجه التأبيد.

ثانياً: المعاهدون: وهم غير المسلمين الوافدون إلى بلاد الإسلام لعمل أو نحوه، ولكل صنف من هذين الصنفين حقوق خاصة، وعامة.

الحقوق العامة لغير المسلمين في بلاد الإسلام:

وهي تفوق بكثير مبادىء «الاعلان العالمي لحقوق الإنسان» لأن مصدرها من عند الله – عز وجل– وأبرز تلك الحقوق:

اولاً: الحق في حفظ الكرامة الإنسانية:

والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة، ومنها قوله تعالى «ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممنْ خلقنا تفضيلاً»[2]، ومن ذلك تكريم آدم

* أستاذ في جامعة القدس

وإسجاد الملائكة له « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى»[٣] ومنها أن بني البشر متساوون في الإنسانية وفي الحقوق، «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٤] ، ومن ذلك أمر الإسلام بوجوب عدم مخاطبة أهل الكتاب ومجادلتهم إلا بالحسنى «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن»[٥]، وقد بلغ من تكريم القرآن الكريم للإنسان أن الله -عز وجل- حرّم على المسلمين سب الآلهة التي يعبدها المشركون حتى لا يؤدي ذلك إلى النيل من الله عز وجل، قال تعالى: «ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم»[٦].

ومن صور مراعاة كرامة الإنسان في سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه مرت به جنازة يهودي فقام، فقيل له إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفساً؟[٧]

ومن صور مرعاة حقوق الإنسان في حياة الخلفاء الراشدين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب إبن عمرو بن العاص بالسوط لأنه ضرب مصرياً قبطياً، وأمر القبطي بضرب عمرو بن العاص أيضاً وهو والي مصر، وقال لعمرو «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

ثانياً: حقّهم في حرّية المعتقد:

ترك الإسلام لغير المسلمين كامل الحرية في أن يبقوا على دينهم، فلا يُجبروا على اعتناق الاسلام بنص الآية القرآنية :«لا إكراه في الدين، قد تّبين الرشدُ من الغيّ»[٨]، وبنص قوله تعالى «أفأنتَ تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين»[٩]، وبقوله تعالى «وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»[١٠].

ولم يكتف الإسلام بذلك بل سمح لهم ممارسة شعائرهم الدينية على أكمل وجه، قال تعالى «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامعُ وبيعٌ وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً»[١١]، ومن الشواهد الفعلية على ذلك وصية أبي بكر (رضي الله عنه) لأسامة بن زيد حينما بعثه لفتح الشام: (إنّي موصيك بعشرٍ: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاةً ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له». ومن ذلك ما جاء في العهدة العمرية الشهيرة من حرية دينية للنصارى في مدينة القدس.

يقول غوستاف لوبون: (إنّ مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة للغاية، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون أو المؤمنون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب). وقال روبرتسون: (إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليم دينهم).

ومع تحفظنا على قضية نشر الدين الإسلامي بالسيف، إذ أن إندونيسيا وهي أكبر دولة إسلامية على وجه الأرض دخلت في الإسلام عن طريق التجار المسلمين. بل إن هذا التسامح لم يشفع للمسلمين في الأندلس فقد تم استئصال وجودهم فلم يترك فيها مسلم بعد حكم دام عدة قرون، وعطاء حضاري أنقذ أوروبا من عصور الظلام، وتسامح لا يزال يضرب به المثل.

ثالثاً: حقهم في التزام شرعهم:

لقد ترك الإسلام لغير المسلمين في بلاد المسلمين حرية عدم الالتزام بأحكام الإسلام، حيث:

- أعفاهم من دفع الزكاة المفروضة على المسلمين.
- أعفاهم من الجهاد مع المسلمين مقابل دفعهم للجزية.
- سمح لهم حرية إقامة حياتهم الاجتماعية حسب تشريعاتهم كالزواج والطلاق ونحو ذلك.
- لا تقام عليهم الحدود المتعلقة فيما لا يرونه حراماً كالخمر، واقام عليهم الحدود فيما يعتقدونه حراماً كالسرقة والزنا ونحوها.
- جعل لهم محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاؤوا، وإن شاؤوا لجؤوا إلى القضاء الإسلامي.

ويقول آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري):

> (لقد خلّت الدولة بين أهل الملل الأخرى من غير المسلمين وبين محاكمهم ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث والمنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به).

رابعاً: حقهم في العدل:

إنّ إقامة العدل في الإسلام لا تخص المسلمين وحدهم، بل إنّ توجيهات إقامة العدل في القرآن الكريم تشمل المسلمين وغير المسلمين، قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى، أن تعدلوا، إن تلووا أو تعرضوا، فإن الله كان بما تعملون خبيراً»[12].

ومن ذلك قوله تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى»[13]، بالإضافة إلى آيات كثيرة تدل على ذات المعنى.

ومن ذلك ما أوردناه من قصة القبطي مع عمرو بن العاص أمام عمر بن الخطاب، ومن أروع الصور على عدل المسلمين مع غيرهم أن قتيبة بن مسلم فتح بلاد سمرقند دون أن يخيّر أهلها بين الاسلام والجزية والحرب، وبعد عشرين سنة من فتحها وحين تولى عمر بن عبد العزيز

الخلافة وسمع أهلها عن عدله، قدموا إليه وأخبروه بما فعله قتيبة، فكتب عمر إلى واليه على سمرقند أن يخرج هو وجيشه منها، وأن يخيّر أهلها بالخيارات الثلاثة، فلما خرجوا منها آمن كثير من أهلها ودخلوا في الإسلام.

ومن صور عدل الإسلام في غير المسلمين أيضاً أن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد أجلى الذميين عن قبرص وجلبهم إلى الشام، فغضب عليه الفقهاء والعلماء وعدّوا ذلك ظلماً وعدواناً، فلما تولّى ابنه يزيد الخلافة كلّمه العلماء في إرجاعهم إلى بلادهم ، فردهم إليها، فلذلك عُدَّ هذا الخليفة من أعدل خلفاء بني أميّة، وقالوا فيه: (الأشجّ والناقص أعدلا بني مروان) يقصدون عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد.

يقول المؤرخ الشهير ولْز عن تعاليم الإسلام:

> (إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرامة والسماحة، كما أنها إنسانية السِّمة، ممكنة التنفيذ، فإنّها خلقت جماعة إنسانية قلّما غمرت الدنيا بالقسوة أو الظلم الاجتماعي، كما كان يحدث في الجماعات الأخرى التي سبقتها).

خامساً: حقهم في حفظ دمائهم وأموالهم وأعراضهم:

حفظ الإسلام بوجه عام بمقاصد الشريعة الإسلامية حقوق المسلمين وغير المسلمين وهي حفظ النفس والدم والمال والعرض والعقل، فهي حقوق وحرمات للنفس الإنسانية مسلمها وغير ذلك، قال تعالى: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ذلك وصّاكم به لعلكم تعقلون»، ويقول أيضاً «من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنَّه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً».

> ويؤيد ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع بعرفة: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)[١٤].

وهذا ليس خاصاً بالمسلمين وحدهم، فإنه (عليه السلام) قال: (من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً)[١٥].

وقد يقول قائل، إذن، فلماذا قامت الحرب في الإسلام، والمعروفة بالجهاد، والجواب أن الجهاد لا يقوم إلا لاسباب وجيهة سامية تتمثل في الحالات التالية:

١. أن تكون رداً على عدوان معتدين مصداقاً لقوله تعالى: «وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إنّ الله لا يحبُّ المعتدين»[١٦].

٢. أن تكون عقاباً لمن نكث العهود والمواثيق، قال تعالى «وإن نكثوا أَيمْانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنّهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون»[١٧].

٣. أن تكون ردعاً لمن منع وصول دعوة الحق إلى الناس، كما قال عز وجل: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»[١٨].

٤. أن تكون نصرة للمظلومين برفع الظلم عنهم، كما قال تعالى «وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان الذين يقولون ربنا أخرجنا مِنْ هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً»[١٩].

وإذا قام أحد المسلمين بسرقة غير المسلمين أو انتهاك حرمته، فإن الاسلام يجعل عقوبة المسلم تماماً كما لو كان المعتدى عليه مسلماً، والشواهد التاريخية تؤيد ذلك، فعندما اشتكى أحد رهبان مصر إلى الوالي أحمد بن طولون أن أحد قواده قد ظلمه وأخذ ماله، قام الوالي بإحضار ذلك القائد وأنّبه وعاقبه وأعاد الأموال إلى ذلك الراهب.

بل إن الاسلام يجعل حق الحماية والإجارة حتى للمشرك، قال تعالى «وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون»[٢٠].

سادساً: حقّهم في الحماية من الاعتداء:

ومن الحقوق البديهية لغير المسلمين في بلاد المسلمين حمايتهم من أي اعتداء من عدوٍ خارجي، فيلزم الإسلام المسلمين الدفاع عن المستأمنين من غير المسلمين في بلاد المسلمين، ويشهد التاريخ على ذلك بصفحات مشرقة، فقد أصرّ شيخ الإسلام إبن تيمية على القائد التتري قطلو شاه أن يخرج أسرى أهل الذمة مع أسرى المسلمين، وأبى اطلاق أسرى المسلمين قبل إطلاق أسرى أهل الذمة.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل الوافدين من الأقاليم عن حال أهل الذمة، فيقولون (ما نعلمُ إلا وفاءً).

سابعاً: حقهم في المعاملة الحسنة:

لم يغفل القرآن الكريم وجوب معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي بالمعاملة الحسنة، بل أوجب على المسلمين معاملتهم بالبر والإحسان، فقال تعالى «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركمْ أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين»[٢١].
ولقد تحوّلت هذه الآية الكريمة إلى سلوك عملي تجلّى في حياة الرسول «عليه السلام» والخلفاء وولاتهم وكل من ولي إمارة عامة من المسلمين، فقد كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) جيران من اليهود وكان يحسن إليهم ويعود مرضاهم ويتصدق عليهم، ولما قدم وفد نصارى نجران على النبي

(صلى الله عليه وسلم)، أكرم وفادتهم وفاءً للأحباش من النصارى الذين أكرموا وفادة المسلمين عندما هاجروا إلى الحبشة فقال: (إنّهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأنا أحب أن أكرمهم بنفسي).

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب قد صرف معاشاً لمساكين اليهود أسوة بمساكين المسلمين وجعل ذلك مصرفاً من مصارف الزكاة من بيت مال المسلمين.

وبقي هذا المعيار هو ميزان التعامل مع غير المسلمين، ويشهد التاريخ على وثيقة كتبها السلطان محمد بن عبد الله سلطان المغرب في العام ١٨٦٤م جاء فيها:

> (نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر أيالتنا بما أوجبه الله من نصب الميزان بالحق والتسوية بينهم وبين غيرهم حتى لا يلحق أحداً منهم مثقال ذرةٍ من ظلم).

وهذا غيضٌ من فيض مما شهده التاريخ من إنصاف المسلمين للرعايا غير المسلمين سائلين الله أن تعتبر الدول غير الإسلامية بذلك فتحسن معاملة المسلمين بالمثل.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل

****

الهوامش

١ - سورة الأنبياء، آية ١٠٧
٢ - سورة الإسراء، آية ٧٠
٣ - سورة طه، آية ١١٦
٤ - سورة الحجرات، آية ١٣
٥ - سورة العنكبوت، آية ٤٦
٦ - سورة الأنعام آية، ١٠٨
٧ - متفق عليه (البخاري ومسلم).
٨ - سورة البقرة، آية ٢٥٦
٩ - سورة يونس، آية ٩٩
١٠ - سورة الكهف، آية ٢٩
١١ - سورة الحج، آية ٤٠
١٢ - سورة النساء، آية ١٣٥
١٣ - سورة المائدة، آية ٨
١٤ - متفق عليه (البخاري ومسلم)
١٥ - صحيح البخاري.
١٦ - سورة البقرة، آية ١٩٠
١٧ - سورة التوبة، آية ١٢
١٨ - سورة البقرة، آية ١٩٣
١٩ - سورة النساء، آية ٧٥
٢٠ - سورة التوبة، آية ٦
٢١ - سورة الممتحنة، آية ٨

الدين و الدولة

القس د. متري الراهب ♣

مع أنّ موضوع الدين والدولة كان يلاحقني سنين كثيرةً إبّان دراستي في ألمانيا في الثمانينات، مرورًا بمنتصف التسعينات عندما كنت جزءًا من حركة اللاهوت المسيحي الفلسطيني، إلا أنّ هذا الموضوع راح يطرق بشدة بوابات بنات أفكاري في منتصف العقد الأخير، وانتابني شعورٌ ظل يتعزّز أكثر فأكثر بأنّ موضوع الدين والدولة سيكون أحد المواضيع الأهم التي عليها سيتحدّد مصير شرقنا العربي والأوسطي. كما وزادت قناعتي أنّ إيجاد علاقةٍ صحيّةٍ بين الدائرتين السّياسيّة والدينيّة أمرٌ حيويٌّ إذا كان لملايين الشباب والشابات العرب أن تكون لهم حياةٌ ومستقبلٌ ومساحةٌ من الحريّات المدنيّة التي تعزّز وجودهم على هذه الأرض، وترسّخ أقدامَهم في هذا الشرق وتطلق مواهبَهم وخيالَهم كي يبدعوا ويخلقوا وينتجوا فكرًا وأدبًا واقتصادًا وانتماء.

وعندما رحت أطرق الأبواب عند الأكاديميين والمثقفين صعقت، إذ ظن البعض أنّني ما زلت أبحث في موضوع قد حُسم منذ أمد بعيد، حسم قوميًّا وحسم دينيًّا. وظنّ البعض الآخر أنّني منهمكٌ في حلِّ لغز فلسفي، تطرّق إليه الفلاسفة قديمًا وحديثًا وأنّ ما مِن جديد في هذا المضمار حتى يستحوذ على كلِّ هذا الاهتمام، كما وسمعت من البعض الآخر ما يشبه التأنيب للتطرّق لموضوع سيخرج الجنيَّ من قمقمه، كما وقد يوقظُ تياراتٍ نحن حاليًّا في غنًى عنها والأفضل لها أن تبقى تغطُّ في نومٍ عميق.

1. لا يخفى على أحدٍ أنّ موضوع العلاقة بين الأنظمة السّياسيّة الحاكمة والجماعات الدّينيّة وكيفيّة تفاعلِها وتفاعلاتِها إنّما يشكّلُ سؤالاً مصيريًّا ليس على مستوى المنطقة فحسب، بل وعلى المستوى العالمي.

لقد تنبأّت الأبحاثُ والدّراساتُ والتي كُتبت في الحُقب الثلاث الأولى من القرن العشرين أنّ العصرنة لا بدّ وأن تجرَّ وراءها عَلمَنة ، وأنّ العامل الدّيني سيخبو عاجلاً أم آجلاً وسيصبح من مخلّفات الماضي السحيق. ولكن مع بداية الثمانينات ومطلع التسعينات رجع موضوع الدّين والدّولة ليطرح نفسَه من جديدٍ على طاولة البحث وفي أروقة المؤتمرات، ومراكز الأبحاث. بل أظهرت إحدى الدّراسات العالميّة [1] ازديادًا ملحوظًا في مستوى تدخّلِ الحكومات في الجماعات الدّينية، كما ورصد ازدياد دعمِ الكثير من الحكومات لجماعات دينيّة معيّنة.

وبالرغم من ذلك لا يوجد بعد اتّفاقٌ على المبادئ التي تؤسّسُ لعلاقةٍ سليمةٍ بين الدّين والدّولة، كما لا يوجد نظامٌ واحدٌ ووحيدٌ يعتبر الأفضل، بل هناك أنماطٌ واجتهاداتٌ مختلفةٌ مرتبطةٌ بالسّياق التّاريخي والثّقافي والاجتماعي لكل بلد، فالنموذج الأمريكي غير الفرنسي ، والسّويدي غير الألماني، والهندي غير الياباني، والسويسري غير الاندونيسي.

♣ دار الندوة الدولية – بيت لحم

ولكن تبقى هناك عدّةُ عواملَ وأسئلة تشكّل بمجموعها بارومترًا ومقياسًا لعلاقة الدّين بالدّولة:

- هل الدّولة حياديّةٌ في الأمور الدّينيّة ، أم أنّها تحابي وتفرّق، أو تضايق الجماعاتِ الدّينيّةَ وكيف تنظّم العلاقة معها؟
- هل ينصُّ الدّستور على دينٍ معيّنٍ للدّولة، وماذا بالنسبة لباقي الأديان؟
- هل هناك انتهاكٌ للحريّاتِ الدّينيّة، أو اضطهادٌ ومضايقاتٌ لمجموعة أو للمجموعات الدّينيّة؟
- هل تتدخّل الدّولةُ في التّشريعات الدّينيّةِ؟
- هل هناك قوانينٌ تصون حريّةَ المعتقد بما فيه من إمكانيّةِ تغيير المعتقد أو الإلحاد، وهل هناك بدائلُ مدنيّةٌ بعيدًا عن الحركات الدّينيّة؟
- ما هو مدى تدخّل الجماعاتِ الدّينيّةِ في سياسات الحكومات، وما هو تأثيرُها على أنظمةِ الدّولة؟

هذه بعض العوامل التي تتحدّدُ بموجبها علاقةُ الدّينِ بالدّولة.

2. إن الدين والدولة ليسا بالضرورة خصمين ولا نقيضين، والعلاقة بينهما ديلكتيكية، إذ قد يبدو للعيان وللوهلة الاولى أنّنا نعيش حالة استقطاب بين الدولة القطرية (العلمانية القومية) للحزب الحاكم من جهة والحركات الدينية المعارضة من جهة أخرى، ولكن هذا الاستقطاب ما هو الا خداعٌ بصريٌّ الى حد ما، فالدولةُ القطريّةُ العربيّةُ القوميّةُ الأصل أخذت في الانزلاق رويدًا رويدًا، وراحت تلبس ثوبًا شرعيًّا دينيًّا يتناقض مع مفاهيم الحريّات وحقوقِ ومواثيقِ الانسان العالميّة، وما حلُمت به الحركاتُ الدّينيّةُ الإسلاميّةُ من تشريعاتٍ حققّته الدّولةُ القطريّة المتعلمنة.

ومن ناحية أخرى، لم ترضَ الحركات الدّينيّةُ بأنْ يقتصرَ دورُها على الدّعوة، بل راحت رويدًا رويدًا تتطلّعُ للحكم وتحلمُ بالسّلطة وتحاربُ من أجلها، بل وفي بعض الأحيان تستولي عليها تارةً بصناديق الاقتراع وتارةً أخرى بانقلاب عسكري.

إذا، وعلى ضوء ما سبق هناك حركتان متضادتان في الاتجاه متوازيتان في التطلعات، الدّولةُ تتديّنُ أكثر فأكثر، والدّينِ يتسلّط أكثرَ فأكثر، والحركتان تقمعان مواطنيها تارةً حفاظًا على أمن الدولة وتارةً أخرى حفاظًا على نقاء العقيدة، تارةً باسم القانون وأخرى باسم الشّريعة، والنتيجةُ ذاتُها، وعلى الأقل هذا هو واقعُ أكثرِ دولِ منطقتِنا.

3. إنّ كلا الدّين والدّولة هما نتاجُ سياقٍ تاريخيٍّ ومجتمعيٍّ شرق أوسطي وبالتالي من يقودُ دفّةَ الدّولةِ ومَن يقود دفّةَ الدّين مجبولان بالطّينة نفسِها، ويشربان من النبعة عينها، وهما ثمرتانِ للقبيلةِ ذاتِها وإنْ بدا للوهلة الأولى أنْ لا قرابةَ بينهما لذلك نعرف أنّ الحلَّ لن يتأتّى بالعصا السحريّة، ولا باستيراد النماذج الغربيّة منها أو الشرقيّة، بل لن يكونَ الحلُّ إلّا نتاجَ مخاض مجتمعي، وعمليّةَ وعيٍّ تراكميٍّ، ونضالٍ سلميٍّ مجتمعي، وحركةِ تحرّرٍ فكري، شريطةَ أنْ يكونَ لها بوصلةٌ تشير بوضوحٍ الى جهةٍ واضحةٍ لا لبسَ فيها.

4. كانت قناعتُنا ومنذ اللحظة الأولى أنّ العلاقةَ بين الدّين والدّولة ليست جامدةً بل هي ديناميكيّة، كما أنّ الكلمةَ الفصلَ لم تُقل بعد ولن تقالَ أبدًا، وإنْ دلّ هذا على شيء إنّما يدلُّ على أنّ حركةَ التاريخ لم تأتِ إلى نهايتها بعد بل سيبقى هذا الموضوعُ في حالة حراكٍ دائم، وبالتالي لا يوجد جوابٌ أبديٌّ أو معادلةٌ ثابتةٌ أو صحيحةٌ بل توجدُ بدائلُ متعدّدةٌ ومساهماتٌ ومقارباتٌ وتفاعلات.

ومنْ كان يظنُّ يومًا أنّ هذا الموضوعَ هو موضوعٌ شرق أوسطيٌّ بحتٌ أو هو عربيٌ أو أن الشمال قد حلّ هذه المعادلةَ مرّةً واحدةً وللأبد اكتشف في السنوات الأخيرة أنّ هذا ما كان إلا من أحلام اليقظة .

فهذا الموضوع هو بلا منازع أحدُ أهمِّ مواضيع السّاعة وعلى النطاق الدولي والعالمي، فالسويد مثلاً خاضت عام ٢٠٠٠ هذا السّؤال من جديد حيث قامت وللمرّةِ الأولى بفصل الدّولة عن الكنيسة اللوثريّة، ولم يكن هذا فصلاً قصريًّا، بل مخاضًا أنتج طفلاً معافى، كما إنّ الاستفتاء على حظر بناء المآذن في سويسرا طرحَ موضوعَ علاقةِ الدّين بالدّولة من جديد على الساحة الأوروبيّة، ناهيك أنّ الحرب على الإرهاب والمحافظين الجدد في أمريكا قد أعادوا بعثرة أوراق الدّين والدّولة من جديد.

5. أما بالنسبة لعلاقة الدين بالدولة في دول منطقتنا العشرين فهذه بعض الترتيبات والإحصائيات:

- على المستوى العالمي تحتلّ هذه المنطقةُ الموقعَ الأخير في موضوعِ فصل الدّين عن الدّولة، تليها منظومةُ الدّول الأرثودكسيّة.
- لا يوجد فصل للدين عن الدولة في أيّة دولة من دول الشرق الأوسط العشرين.
- لسبع عشرة (١٧) دولة من الدول العشرين دين رسمي هو الإسلام.
- إنّ تسع عشرة (١٩) دولة تمنع التبشير وأربع عشرة (١٤) دولة تجرّم تغيير المعتقد.
- هناك اثنتا عشرة (١٢) دولة تمنع نشر كتبٍ لأقليّات وجماعاتٍ دينيّة.
- إنّ خمس عشرة (١٥) دولة تمنع وجود أحزاب دينيّة، وعشرة (١٠) دول تلاحق القيادات الأصوليّة.
- ستٌّ (٦) من هذه الدول تمنع دين الأقليّات ودولةٌ واحدة لا تسمح بدين لأيّة مجموعة أخرى.

لا يجوز أن ننظر الى هذا الموضوع بعيدًا عن السياق العام، من ما يشبه غياب للديمقراطيّة والحداثة والانتاج بكافة أشكاله ، وحالات الاستقطاب بين الحزب الحاكم الواحد والتيّارات الدّينيّة والتي تسعى للسيطرة على الحكم وعدم الاكتراث بشرعيّة حقوق الانسان.

6. في قلب هذه المنطقة هناك ثلاثُ دول مميزة: السعودية والأقرب عالميًّا لأن تكون دولة دينيّة، وإيران التي تعرّف نفسها كجمهوريّة إسلاميّةٍ، وإسرائيل التي تعرّف نفسها كدولة يهوديّة. إنّ محاولات نتنياهو بتسويق فكرة يهوديّة الدّولة الإسرائيليّة على الصّعيد العالمي، بالإضافة إلى وعد وزير العدل الإسرائيلي يعقوب نئمان لإعادة المجد للماضي بإدخال

قوانين التوراة تدريجيًّا إلى المجتمع الإسرائيلي وتحويل الشّريعة اليهوديّة إلى القانون الملزم في دولة إسرائيل كونَ أنّ التوراة فيها حلٌّ كاملٌ لكلّ الأسئلة المطروحة في المجتمع الإسرائيلي، مرورًا بمحاولات حركة حماس تشريع بعض القوانين التي تخصّ المرأة انطلاقًا من مفهومها للشرع الإلهي، كلّ هذه إنْ دلّت على شيء إنّما تدلّ على أهميّة هذا الموضوع.

7. لقد بدا لي أحيانا وكأنّنا أمام موضوع ترفٍ فكريٍّ أو نقاش بيزنطيٍّ أو حوارٍ نظريٍّ ولكننا نعتقد أنّ هذا الموضوع هو موضوعٌ مصيريٌّ، وأنّ العلاقة الصحيحة بين الدّين والدّولة مهمة للتقدّم البشريِّ وللمستقبل الشرق–أوسطي، واختلال هذه العلاقة يؤثّر على جودة الحياة، وينغصّ العيش اليومي، ويؤخّر في الرقي المجتمعي. فإذا اختلّت العلاقة بين الدّين والدّولة دفعت المرأة ثمنًا باهظًا، واضطهدت الأقليّات وانتهكت كرامةُ الإنسان وحرياتُه وانتفت التعدّدية الفكريّة، هذا بالإضافة إلى أنّ مجتمعَ القمع لا يحدُّ الحريّاتِ الفرديّةَ والجماعيّةَ فحسب بل يحدُّ من الإنتاج وبالتالي يهدرُ الطّاقاتِ البشريّةَ بدلا من أنْ يكتشفها ويفجّرَها .

وربما يجدر بنا أنْ ندرس تأثير العلاقة بين الدّين والدّولة على الاقتصاد والانتاج من جهة، وتفاعلاتِ السّوق الحرّةِ والعولمة على هذا الحراك من جهة أخرى.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ تأمين سعادة الانسانِ وكرامتِه هي في النهاية محورُ الدّين والدّولة، فهل من الممكن خلق توافق بين الدّين والدّولة كي يكون لإنساننا الشّرق–أوسطيّ حياةٌ أفضل؟ هذا هو السؤال المحوري.

8. إنّ حالة المخاض والثوراتِ التي تمرّ بها مجتمعاتُنا العربيّة بدءًا من تونس ومرورًا بمصر وليبيا وحتى سوريا والبحرين إنّما تؤكّد أنّ موضوع الدّين والدّولة أضحى الموضوعَ الأوّلَ في العالم العربي بلا منازع، فمع رفض تعديل المادة الثانية من الدستور المصري والمتعلّقة بالشّريعة الإسلامية، ومع صعود حزب الله إلى الحكم في لبنان، وانفصال جنوب السودان عن شماله خوفًا من حكم الشريعة الإسلامية، ونغمة سنّي– شيعي في البحرين والخليج العربي، وسنّي– علوي في سوريا، ومسيحي– مسلم في العراق، إنما تشير كلّها إلى أنّ هذا الموضوع يشكّل حاليًّا هاجسًا في فكر المواطن العربي والشرق الأوسط.

وكلنا أملٌ أنْ يساهم هذا البحث في إغناء الحوار العربي حول الدّين والدّولة بهدف بناء مجتمع عربيٍّ مدنيٍّ معاصرٍ ومنتج يحلو العيش فيه لصونه كرامةَ المواطن مع إعطائه المساحة الكافيةً لتطوير هويتِه الثقافيّة والدّينيّة والسّياسيّةِ في إطارٍ تعدّديٍّ.

****

الهوامش

1 Jonathan Fox, A World Survey of Religion and the State, Columbia University Press, Cambridge, 2008.

فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة

أ.د. حسين مطاوع الترتوري *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا البحث عنوانه: « فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة»، أقدمه لمؤتمر مؤسسة باسيا المنعقد في رام الله يوم الإثنين ٢٠١١/٧/٢٥.

أهداف البحث

أتطلع في هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. بيان معنى الأقلية المسلمة.
٢. بيان أهمية البحث في الأقليات المسلمة.
٣. بيان أن الأصل في أحكام الإسلام الثبات.
٤. بيان أثر تغيِّر الواقع في الأحكام الشرعية.
٥. بيان تميز أحكام الشريعة الإسلامية واستيعابها لكل مستجدات الناس.

أهمية البحث

تظهر أهمية هذا البحث –من خلال تحقيقه لأهدافه–، في النقاط التالية:

١. يؤكد هذا البحث واقعا ، وهو وجود أقليات مسلمة في مجتمعات غير مسلمة لها حاجاتها، وخصوصياتها.
٢. يؤكد هذا البحث أصلا في التشريع وخاصية من خصائصه، وهو ثبات أحكام الشريعة الإسلامية.
٣. يُظهر هذا البحث أن في التشريع الإسلامي حلولاً لكل ما يستجد للناس من مسائل.
٤. يُظهر هذا البحث عظمة التشريع الإسلامي، وصلاحيته لكل زمان ومكان.

* عميد كلية الشريعة / جامعة الخليل

٥. يُظهر هذا البحث أن سعادة الناس الدنيوية والأخروية، مرهونة بالتزامهم بشرع ربهم في كل مناحي الحياة، حتى لو كانوا في دول غير إسلامية.

منهج البحث

اتبعت في كتابة هذا البحث المنهج الوصفي، مستفيدا من المنهجين الاستنباطي، والاستقرائي، كما هو حال جُل أبحاث الدراسات الشرعية والإنسانية، وذلك تحقيقاً لأهدافه على الوجه الأكمل.

حدود البحث

سيقتصر حديثي عن بعض المسائل الفقهية ، مما يُعدُّ من نوازل الأقليات المسلمة بحيث تكون تطبيقاً لتأصيل فقه الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية.

محتوى البحث

قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

- المقدمـة : تضمنت عنوان البحث، وأهدافه، وأهميته، ومنهجه، وحدوده، ومحتواه.
- المبحث الأول: معنى «فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة» وأهمية البحث فيه.
- المبحث الثاني: الأصل في الأحكام الشرعية الثبات.
- المبحث الثالث: أثر تغيُّر الواقع في الأحكام الشرعية.
- المبحث الرابع: نماذج من فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة.
- الخاتمـة: نتائج البحث.

المبحث الأول

معنى «فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة» وأهمية البحث فيه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الفقه في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: مفهوم الأقلية المسلمة.

المطلب الأول

الفقه في اللغة والاصطلاح

الفقه لغة: العلم بالشيء والفهمُ له، ومن ذلك قول الله عز وجل: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[1]، وغلبَ على عِلْم الدين لسِيادَتِه وشرفه وفَضْلِه على سائر أَنواع العلم ، قال الله عز وجل: {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }[2]، «ليَتفَقَّهوا في الدين» أَي ليَكونوا عُلَماء به. ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)[3] أَي فَهِّمْه أحكامه، فاستجاب الله دُعاءه وكان من أَعلم الناس في زمانه بكتاب الله سبحانه وتعالى [4].

الفقه اصطلاحا: معرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية

يُسأل الفقيه عن حكم الله في المسألة، فيبحث عن الدليل التفصيلي، أو الأدلة التفصيلية المتعلقة بها، وينظر في هذه الأدلة، مستعينا بالقواعد الأصولية، ليصل إلى حكم الله فيها، وهو ما نسميه الحكم الشرعي العملي، أو التفصيلي.

فالفقه لا بُدَّ أن يستند إلى الأدلة الشرعية التفصيلية، ينظر فيها الفقيه، مستعينا بالقاعدة الأصولية ليصل إلى حكم الله في المسألة التي يُسأل عنها.

المطلب الثاني

مفهوم الأقلية المسلمة

«الأقليات» مصطلح سياسي، يراد به مجموعة ممن يعيشون في دولة ينتمون إلى عِرق، أو دين، أو لغة غير ما تنتمي إليه أكثريتها.

وترجع قوة الأقلية إلى نشاطها الفاعل في الحياة السياسية، وفي المجتمع المدني عموما. وليس عدد الأقلية دليلا على قوتها.

يمكننا تعريف الأقليات المسلمة بأنها: مجموعة من المسلمين يعيشون في دولة غير مسلمة. والدولة غير المسلمة هي الدولة التي لا يَختار أهلها لأنفسهم الحكم بأي شريعة، أو نظام غير الإسلام.

ويُسمى المسلمون أقلية وإن كان عددهم كبيراً، ما دامت نسبتهم أقل من الأغلبية، فالمسلمون في الهند حوالي مائة وخمسين مليوناً، وفي الصين أكثر من مائة مليون ، ومع ذلك فهم أقليات مسلمة في هاتين الدولتين ، لضعف نسبتهم بالنسبة إلى غيرهم من السكان، ولضعف حضورهم الفاعل في تلك المجتمعات.

ظهر مصطلح الأقليات المسلمة في القرنين العشرين والحادي والعشرين، عندما كثرت هجرة المسلمين من العرب ومن شبه القارة الهندية إلى أوروبا وأميركا. وعاش هؤلاء المسلمون في مجتمعات جديدة ، تُحكَم بغير الإسلام، فلها قوانينها الخاصة فيها، ولها عاداتها وتقاليدها . وجَدَّت أمام هؤلاء المسلمين وقائع لم تكن في مجتمعاتهم الإسلامية التي قدموا منها. فكان لا بُدَّ أن يعرفوا حكم الله في كل ما يجد ، فإن كان حراما اجتنبوه، وإن كان واجبا التزموا به، وإن كان مباحا كان لهم فيه سعة.

المبحث الثاني

الأصل في الأحكام الشرعية الثبات

الأصل في الأحكام الشرعية الثَّبات وعدم التغيُّر لقوله تعالى{اتبعوا ما أنزل إليكم}[٥]، وقوله تعالى{وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}[٦].

وهناك أحكام في الدين لا يمكن أن تتغير، وتُعتبر ثوابت في هذا الدين، وهي:

١. الأحكام العقدية: كالإيمان بالله ووحدانيته، والإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام وتصديقهم، والإيمان بالكتب والملائكة، والإيمان باليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وتحريم الشرك، وتحريم موالاة الكفار .

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم وفي سنة الرسول – صلّى الله عليه وسلّم– كثيرة منها: قوله تعالى{فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم}[٧]. وقوله تعالى{آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله}[٨]، وقوله تعالى{ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين}[٩]، وقوله تعالى {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}[١٠]، وقوله تعالى{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم}[١١] وقول الرسول– صلّى الله عليه وسلّم – لجبريل لما سأله عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتُؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كلّه)[١٢]، وقوله– صلّى الله عليه وسلّم –(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[١٣]، وقوله– صلّى الله عليه وسلّم –(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)[١٤] .

٢. الأحكام الشرعية العملية التي تتضمن قواعد وأسس هذا الدين، والأحكام المعلومة من الدين بالضرورة ، والأحكام التي تحث على الأخلاق والفضائل ، بل وجميع الأحكام الشرعية العملية التي لم تُبن على العرف أو المصلحة أو التي لم تعلق على علة أو التي لم تصحبها ضرورة، فإنها ثابتة ولا يصح جعلها محل نظر وتغيير.

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة منها: وقوله تعالى{وما جعل عليكم في الدين من حرج}[١٥]، وقوله تعالى{لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}[١٦]، وقوله تعالى{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}[١٧] وقوله تعالى{ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين}[١٨]، وقوله تعالى {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}[١٩]، وقوله تعالى{ولا تقربوا الزنى}[٢٠] ، وقوله تعالى{حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير}[٢١]وقوله تعالى{الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين

بالأسحار}[٢٢]، وقوله تعالى{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}[٢٣]. وقول الرسول– صلّى الله عليه وسلّم –: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان)[٢٤]، وقوله – صلّى الله عليه وسلّم –: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[٢٥]، وقوله – صلّى الله عليه وسلّم –: (إن الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ...)[٢٦]، وقوله– صلّى الله عليه وسلّم –لمن سأله من أحق الناس بحسن صحابتي: (أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك)[٢٧]، وقوله – صلّى الله عليه وسلّم – (من لا يرحَم لا يُرحم)[٢٨]، وقوله– صلّى الله عليه وسلّم –(...فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)[٢٩]، وقوله– صلّى الله عليه وسلّم –(سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[٣٠]. فهذه الأحكام، وغيرها كثير جدا،[٣١] ثابتة إلى يوم الدين لا يتغير شيء منها.

وقد شرعت الأحكام لمصالح العباد، فما عدا الأحكام المذكورة يمكن أن تتغير؛ فإذا لم يعد الحكم محققا للمصلحة بأن كان مبنيا على عرف وتغير ذلك العرف أو كان مبنيا على مصلحة وتغيرت تلك المصلحة أو كان معلقا على وصف وانتفى ذلك الوصف أو طرأت ضرورة صحبت ذلك الحكم، فإن الواجب على المجتهد مراعاة ذلك العرف أو تلك المصلحة أو الضرورة وملاحظة الوصف الذي بني عليه الحكم.

وقد اعتبر الإسلام العرف الصحيح الذي لا يتعارض مع الشرع، فقد أقرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم العادات والأعراف الحسنة التي وَجد العرب عليها ، وهذا يدل على اعتبار العرف.

وقد بنى العلماء كثيرا من الأحكام على العرف واعتبروه أصلا يُرجع إليه.

وأرجع الإمام مالك بعض الأحكام إلى ما كان معروفا عند أهل المدينة كمقدار المُد والصاع ، وإسقاط خيار المجلس ، ومطالبة المرأة بمؤخر الصداق متى شاءت[٣٢] .

وغيَّر الشافعي فتاواه المبنية على العرف لما انتقل من العراق إلى مصر لتغير أعراف الناس[٣٣] .

المبحث الثالث

أثر تغيُّر الواقع في الأحكام الشرعية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنى فقه الواقع وأهميته.

المطلب الثاني: اعتبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) لفقه الواقع.

المطلب الأول

معنى فقه الواقع وأهميته

المراد بفقه الواقع: الاجتهاد في تحقيق المناط سواء أكان تحقيق المناط العام، أو تحقيق المناط الخاص.

وتحقيق المناط العام هو: تطبيق الأحكام الثابتة بأدلتها الشرعية من الكتاب أو السنة أو غيرها من الأدلة على الوقائع والنوازل، أي (أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي ولكن يبقى النظر في تعيين محله)[٣٤]. ولا خلاف بين الأمة في ضرورة مراعاة المجتهد لتحقيق المناط العام عند الإجابة عن أية مسألة يُسأل عنها في كلِّ زمان ومكان، وقد وصف الشاطبي هذا النوع من أنواع الاجتهاد بأنه (لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف وذلك عند قيام الساعة)[٣٥].

وتحقيق المناط الخاص: نوع من أنواع تحقيق المناط العام، وهو نظر في كل مكلف بالنسبة إلى ما وقع عليه من الدلائل التكليفية نظرة تأمل في حاله وواقعه، وهو أدق من تحقيق المناط العام لأن المجتهد هنا يراعي اختلاف حال الأشخاص بل واختلاف حال الشخص الواحد من وقت إلى وقت ومن مكان إلى مكان[٣٦].

أهمية فقه الواقع

لفقه الواقع أهمية كبيرة تظهر في النقطتين التاليتين:

الأولى: إن عدم إدراك المجتهد لفقه الواقع يبعده عن مشكلات الأمة وبالتالي عن طرح الحلول المناسبة لها، ويجعله يقتصر على ترديد اجتهاد من سبقه بغض النظر عن انطباق اجتهاد من سبقه على الوقائع النازلة والحوادث المستجدة أم لا ؟ فيعطي بعض الوقائع المستجدة أحكاما مخالفة للأحكام التي يجب أن توصف بها لو أدرك المجتهد واقع المسألة التي سُئل عنها من جميع جوانبها.

فمراعاة فقه الواقع يعطي هذا الدين حقيقته وهي: أنه نزل للتطبيق ولبيان حكم الله في كل مسألة

تعترض الناس في كل زمان ومكان. وفي المقابل فان عدم مراعاة واقع المسألة التي يُسأل عنها المجتهد يجعل هذا الدين جزءاً من تراث الأمة الإسلامية –فحسب–، يحفظ العلماء المعاصرون أحكامه ويرددونها من غير مراعاة لظروف كل مسألة وللأوصاف المؤثرة فيها والأوصاف غير المؤثرة.

الثانية: موضوع فقه الواقع مرتبط ارتباطا وثيقا بأدلة كلِّية وقواعد أصولية لا يفهم إلا إذا فُهمت، فهو ينير الطريق أمام قارئه ويوضح له مسائل أصولية متعددة: كتحقيق المناط، وارتباط الحكم بعلته وجودا وعدما، وسبب نزول القرآن، وسبب ورود الحديث، والمصلحة المرسلة، والعرف والعادة، وتغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان المبني على تغيُّر المصلحة أو تغيُّر العرف، والرخصة والضرورات، والاستحسان، وإن كان ارتباطه بغير الاستحسان أشدّ إلا أن له صلةً واضحةً بالاستحسان[٣٧].

المطلب الثاني

اعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم فقه الواقع

ثبت مراعاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقه الواقع في إجاباته عمَّا كان يُسأل عنه، ومن ذلك:

١. سُئل الرسول صلى الله عليه وسلّم في أوقات مختلفة عن أفضل الأعمال، فأجاب بأجوبة مختلفة، وأحيانا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يذكر أفضل الأعمال للصحابة من غير سؤال، ولو جمعنا ما قاله صلى الله عليه وسلم في ذلك لاقتضى التعارض. لكنَّ المدرك لفقه الواقع يعلمُ أن الأجوبة كانت تختلف باختلاف السائل وحاله وباختلاف الوقت وحاجة الناس في ذلك الوقت إلى إبراز عمل معيَّن، أو التأكيد على عمل أكثر من غيره. وأمثلة هذا في السنة كثيرة منها[٣٨]:

- (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ)[٣٩].

- (عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[٤٠].

- (حَدَّثَنَا أَبُو عَمَّارٍ الْحُسَيْنُ بْنُ حُرَيْثٍ حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعُمَرِيِّ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ غَنَّامٍ عَنْ عَمَّتِهِ أُمِّ فَرْوَةَ وَكَانَتْ مِمَّنْ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ الصَّلَاةُ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا)[٤١].

- (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُبْشِيٍّ الْخَثْعَمِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ طُولُ الْقِيَامِ)[٤٢].

٢. سُئل النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة أي الإسلام خير؟ وأي المسلمين خير؟ وأي الناس أفضل؟ فأجاب بأجوبة مختلفة تقتضي التعارض للوهلة الأُولى، لكنَّ المدرك لمراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لواقع السائل أو الوقت الّذي حصل فيه السؤال والجواب يدرك أنه لا تعارض وإن اختلف الجواب، ومن أمثلة ذلك[٤٣]:

- (حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ يَزِيدَ عَنْ أَبِي الْخَيْرِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)[٤٤].

- (حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ وَإِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا دَاوُدُ هُوَ ابْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٤٥].

- (حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ أَبِي مُزَاحِمٍ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْوَلِيدِ الزُّبَيْدِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ)[٤٦].

- (حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَاقِدٍ حَدَّثَنَا مُغِيثُ بْنُ سُمَيٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ قَالَ كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ قَالُوا صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ قَالَ هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ)[٤٧].

٣. أمَر الرسول صلى الله عليه وسلّم الصحابة أن يتصدقوا، فجاء عمر بنصف ماله، وجاء أبو بكر بكل ماله، وجاء رجل آخر لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بكل ماله وهو بيضة من ذهب، فلم يقبله منه.

فانظر كيف قَبِل الرسول صلى الله عليه وسلّم من أبي بكر كلَّ ماله وأرشد كعباً أن يبقي بعض ماله ولم يقبل عليه الصلاة والسلام بيضة الذهب من الآخر لأنها كانت كلَّ ماله، ففرَّق عليه الصلاة والسلام بين هؤلاء الأشخاص لعلمه بحال كلّ منهم. فهو يعلم عليه الصلاة والسلام قوة إيمان أبي بكر وصبره على قلة المال وعدم ندمه على تصدقه به فلم يمنعه من التصدق بكل ماله بخلاف صاحب البيضة فلو قبلها منه عليه الصلاة والسلام لأصبح فقيرا معدَما ولقعد يتكفف الناس كما جاء هذا صريحا في الحديث. أو لَندم على تصدقه بكل ماله فتحصل له الفتنة بدلا من الأجر. قال الخطابي:(ولم ينكر على أبي بكر الصديق خروجه من ماله أجمع لما علمه من صحة نيته وقوة يقينه ولم يَخَفْ عليه الفتنة كما خافها على ٱلّذي ردّ عليه الذهب)[٤٨]. وغير ذلك من الأدلة كثير[٤٩].

المبحث الرابع

نماذج من فقه الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة

جدَّت للأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية مسائل احتاجوا للسؤال عن حكم الله فيها. وتصدرت جهات متخصصة بالفتوى للإجابة عن حكمها، ومن خير من طُرحت عليهم تلك الأسئلة، المجلس الأوروبي للإفتاء، بوصفه مدركا لواقع ما يُسأل عنه. وكان يستعين أعضاء الفتوى فيه بعلماء من خارج المجلس أيضا يتمتعون بعلم غزير وثقة وقَبول لدى المسلمين. وكانوا ينظرون في مسائل مستجدة لا يستطيع إعطاء الحكم فيها إلا من أدرك واقعها. ومن هذه المسائل:

قرار المجلس الأوروبي للإفتاء حول مواقيت الصلاة

القرار رقم (١٢/٢)

حول مواقيت الصلاة والصيام في البلاد ذات خطوط العرض العالية:

تداول أعضاء المجلس في موضوع مواقيت الصلاة والصيام في البلاد ذات خطوط العرض العالية، واستمعوا إلى الدراسات الشرعية والفلكية المقدمة من بعض الأعضاء، والعروض التوضيحية للجوانب الفنية ذات الصلة التي تمت التوصية بها في الدورة الحادية عشرة للمجلس، وقرر ما يلي:

أولاً: تأكيد القرار السادس الصادر عن المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي بشأن مواقيت الصلاة والصيام في البلاد ذات خطوط العرض العالية ونصه:

> «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا ونبينا محمد-صلى الله عليه وسلم-.
> أما بعد: فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته التاسعة المنعقدة بمبنى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في الفترة من يوم السبت ١٢ رجب ١٤٠٦ هـ إلى يوم السبت ١٩ رجب ١٤٠٦هـ قد نظر في موضوع «أوقات الصلاة والصيام لسكان المناطق ذات الدرجات العالية».

ومراعاة لروح الشريعة المبنية على التيسير ورفع الحرج وبناءً على ما أفادت به لجنة الخبراء الفلكيين، قرر المجلس في هذا الموضوع ما يلي:

أولا: دفعاً للاضطرابات الناتجة عن تعدد طرق الحساب، يحدد لكل وقت من أوقات الصلاة العلامات الفلكية التي تتفق مع ما أشارت الشريعة إليه، ومع ما أوضحه علماء

الميقات الشرعي في تحويل هذه العلامات إلى حسابات فلكية متصلة بموقع الشمس فوق الأفق أو تحته، كما يلي:

١. الفجر: ويوافق بزوغ أول خيط من النور الأبيض وانتشاره عرضاً في الأفق «الفجر الصادق» ويوافق الزاوية (١٨°) تحت الأفق الشرقي.
٢. الشروق: ويوافق ابتداء ظهور الحافة العليا لقرص الشمس من تحت الأفق الشرقي ويقدر بزاوية تبلغ (٥٠') دقيقة زاوية تحت الأفق.
٣. الظهر: ويوافق عبور الشمس لدائرة الزوال ويمثل أعلى ارتفاع يومي للشمس يقابله أقصر ظل للأجسام الرأسية.
٤. العصر: ويوافق موقع الشمس الذي يصبح معه ظل الشيء مساوياً لطوله مضاف إليه فيء الزوال، وزاوية هذا الموقع متغيرة بتغير الزمان والمكان.
٥. المغرب: ويوافق اختفاء كامل قرص الشمس تحت الأفق الغربي، وتقدر زاويته بـ(٥٠') دقيقة زاوية تحت الأفق.
٦. العشاء: ويوافق غياب الشفق الأحمر حيث تقع الشمس على زاوية قدرها (١٧°) تحت الأفق الغربي.

ثانياً:عند التمكين للأوقات يكتفى بإضافة دقيقتين زمنيتين على كل من أوقات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وإنقاص دقيقتين زمنيتين من كل من وقتي الفجر والشروق.

ثالثاً: تقسم المناطق ذات الدرجات العالية إلى ثلاثة أقسام:

- المنطقة الأولى: وهي التي تقع ما بين خطي العرض (٤٥°) درجة و(٤٨°) درجة شمالاً وجنوباً، وتتميز فيه العلامات الظاهرة للأوقات في أربع وعشرين ساعة طالت الأوقات أو قصرت.
- المنطقة الثانية: وتقع ما بين خطي عرض (٤٨°) درجة و(٦٦°) درجة شمالاً وجنوباً، وتنعدم فيها بعض العلامات الفلكية للأوقات في عدد من أيام السنة، كأن لا يغيب الشفق الذي به يبتدئ العشاء وتمتد نهاية وقت المغرب حتى يتداخل مع الفجر.
- المنطقة الثالثة: وتقع فوق خط عرض (٦٦°) درجة شمالاً وجنوباً إلى القطبين، وتنعدم فيها العلامات الظاهرة للأوقات في فترة طويلة من السنة نهاراً أو ليلاً.

رابعاً: والحكم في المنطقة الأولى: أن يلتزم أهلها في الصلاة بأوقاتها الشرعية، وفي الصوم بوقته الشرعي من تبيّن الفجر الصادق إلى غروب الشمس عملاً بالنصوص الشرعية في أوقات الصلاة والصوم، ومن عجز عن صيام يوم أو إتمامه لطول الوقت أفطر وقضى في الأيام المناسبة.

خامساً: والحكم في المنطقة الثانية أن يعيّن وقت صلاة العشاء والفجر بالقياس النسبي على نظيريهما في ليل أقرب مكان تتميّز فيه علامات وقتي العشاء والفجر، ويقترح مجلس المجمع خط (٤٥°) باعتباره أقرب الأماكن التي تتيسر فيها العبادة أو التمييز، فإذا كان العشاء يبدأ مثلاً بعد ثلث الليل في خط عرض (٤٥°) درجة يبدأ كذلك بالنسبة إلى ليل خط عرض المكان المراد تعيين الوقت فيه، ومثل هذا يقال في الفجر.

سادساً: والحكم في المنطقة الثالثة أن تقدر جميع الأوقات بالقياس الزمني على نظائرها في خط عرض (٤٥°) درجة، وذلك بأن تقسم الأربع والعشرين ساعة في المنطقة من (٦٦°) درجة إلى القطبين، كما تقسم الأوقات في خط عرض (٤٥°) درجة.

فإذا كان طول الليل في خط عرض (٤٥°) يساوي (٨) ساعات، وكانت الشمس تغرب في الساعة الثامنة، وكان العشاء في الساعة الحادية عشرة جعل نظير ذلك في البلد المراد تعيين الوقت فيه، وإذا كان وقت الفجر في خط عرض (٤٥°) درجة في الساعة الثانية صباحاً كان الفجر كذلك في البلد المراد تعيين الوقت فيه ويُدئ الصوم منه حتى وقت المغرب المقدّر.

وذلك قياساً على التقدير الوارد في حديث الدجّال الذي جاء فيه: (قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْماً، يَوْمُ كَسَنَةٍ وَيَوْمُ كَشَهْرٍ، وَيَوْمُ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ « قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: فَذَلِكَ اليَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟ قَالَ: لا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» [أخرجه مسلم وأبو داود واللفظ له في كتاب الملاحم]. والله ولي التوفيق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين». انتهى قرار المجمع الفقهي.

ثانياً: نظراً إلى أن هذه القضية اجتهادية وليست فيها نصوص قطعية فلا يرى المجلس حرجاً في الاعتماد على تقديرات أخرى صادرة من هيئات فتوى إسلامية مثل الاعتماد على درجة انحطاط الشمس بدرجة (١٢) الموافقة لصلاتي الفجر والعشاء ومثل تحديد الفارق الزمني بين وقتي المغرب والعشاء ووقت الفجر وشروق الشمس بساعة ونصف.

وينصح المجلس الجهات الإسلامية المسئولة في المساجد والمراكز الإسلامية باتباع الطريقة التي ذكرها المجلس والمتفقة مع ما انتهى إليه المجمع الفقهي الإسلامي في مكة المكرمة كما ذكر أعلاه.

ثالثاً: يؤكد المجلس قراره السابق رقم (٣/٣) بشأن مشروعية الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء عند ضياع علامة العشاء أو تأخر وقتها، رفعاً للحرج وتيسيراً على المسلمين المقيمين في ديار الغرب، والله أعلم.

إلقاء خطبة الجمعة بغير اللغة العربية

السؤال:نحن هنا في بريطانيا، يحضر المسجد عندنا لشهود الجمعة من يفهم اللغة العربية ومن لا يفهمها، والجميع أو الأكثر يفهم لغة أهل البلد، فهل يجوز لنا إلقاء خطبة الجمعة بلغة المخاطبين وإن كانت غير العربية؟

الجواب:حيث إن المقصود بخطبة الجمعة هو التعليم والإرشاد، فمراعاة لغة المخاطبين هو الأصل في خطابهم، ونبه القرآن الكريم على هذا المعنى في الإبانة عن وظيفة الرسل، فقال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّنَ لهم»[٥٠]، وقال عز وجل: «فهل على الرسل إلا البلاغ المبين»[٥١]، والبلاغ لا يكون مبيناً إلا إذا كان بلسان يفهمه المخاطب.
والأصل في خطبة الجمعة أن تكون باللغة العربية إذا غلب على المخاطبين فهمها، وذلك من أجل حاجة الخطبة إلى الاستدلال بالآية من القرآن، والحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، وذكر الله تعالى، ليحصل بذلك الغرض منها، والأبلغ في كل ذلك أن يكون بالعربية، ثم تحقق حاجة من لا يفهمها بالترجمة له حسب ما تيسر.

والأشبه أن يكون هذا هو المراد في رأي جمهور الفقهاء الذين ذهبوا إلى أن تكون الخطبة بالعربية.

فإن قل أو انعدم من يفهم العربية من الحاضرين، فلا مانع في أن تكون بلغتهم، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة حيث أجاز الخطبة بغير العربية

إلى من ترفع المرأة شكواها في الغرب ؟[٥٢]

السؤال: إلى من تلجأ المرأة المسلمة في بلاد الغرب عند وجود مشاكل عائلية وخلاف مع الزوج ؟

الجواب : الأصل في المجتمع المسلم أنه مجتمع متضامن في أموره كلها يأخذ بعضه بيد بعض ويعين قويه ضعيفه ويعلم عالمه جاهله وينتصر للمظلوم ويأخذ على يد الظالم يمنعه من الظلم كما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال: تمنعه من الظلم فإن ذلك نصرُه»[٥٣].

وفي حالة الشقاق والخلاف العائلي حين يستفحل بين الزوجين ولا يستطيعان حل مشاكلهما الخاصة بالتفاهم والتراضى فإن على المجتمع المسلم أن يتدخل بتعيين «محكمة عائلية» مكونة من حكمين أي شخصين من أهل الرأي والمكانة والقدرة على الحكم يجتهدان في الإصلاح بينهما ما وجدا إلى ذلك سبيلاً وإلا حكما بالتفريق بينهما وينفذ ذلك قضاء كما حدث في زمن الصحابة رضي الله عنهم. ثبت ذلك من قبل عبد الله بن عباس ومعاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان كما ثبت من قول علي بن أبي طالب وقضائه.[٥٤]

يقول تعالى مخاطباً جماعة المسلمين «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَٰحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا»[٥٥].

ونظراً لأن الزوجين في الحالة المسئول عنها يعيشان في بلد غير مسلم فالمطلوب من الجالية المسلمة في كل مدينة فيها وجود ظاهر للمسلمين أن يكون لهم مجلس تحكيم أو مجلس إصلاح يتكون من ثلاثة مثلا من عقلاء المسلمين وثقاتهم المأمونين على أسرار الناس ممن عرفوا بحصافة الرأي ومتانة الخلق وقوة الدين ورضاء الناس عنهم ويكون أحدهم ممن له معرفة بأحكام الشرع دون تزمت ولا تسيب وتعرض عليهم هذه المشاكل لينظروا فيها ويحاولوا التوفيق والإصلاح ما استطاعوا ويضعوا لذلك الضوابط ويلزموا بذلك الطرفين وعلى الجميع أن يساعدهم على ذلك حتى يستقيم أمر الجماعة المسلمة وفي الحديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: «إن يد الله مع الجماعة فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض»[٥٦].

فإن لم يُجدِ التوفيق والإصلاح مع المحاولة الجادة والنية الصالحة فليس أمامهم إلا أن ينصحوا بالفراق بالمعروف والتسريح بإحسان كما أمر الله تعالى وقد قيل : إن لم يكن وفاق ففراق. وأبغض الحلال إلى الله الطلاق ولكنه قد يكون ضرورة في بعض الأحيان. وآخر الدواء الكيُّ.

والحمد لله رب العالمين.

****

الهوامش

١ سورة الإسراء، آيه ٤٤.
٢ سورة التوبة، آيه ١٢٢.
٣ رواه البخاري برقم ١٤٠.
٤ لسان العرب لابن منظور ٥٢٢/١٣.
٥ سورة الأعراف، آية ٣ .
٦ سورة النساء، آية ٦٤.
٧ سورة آل عمران، آية ١٧٩ .
٨ سورة البقرة، آية ٢٨٥ .
٩ سورة الزمر، آية ٦٥ .
١٠ سورة المجادلة، آية ٢٢.
١١ سورة االمائدة، آية ٥١ .
١٢ رواه مسلم ٤٠/١ .
١٣ رواه البخاري ٩/١ .
١٤ رواه البخاري ٩/١-١٠ .
١٥ سورة الحج، آية ٧٨ .
١٦ سورة البقرة، آية ٢٨٦ .
١٧ سورة النساء، آية ٥٨ .
١٨ سورة البقرة، آية ٤١ .
١٩ سورة آل عمران، آية ١٠٤ .
٢٠ سورة الإسراء، آية ٣٢ .
٢١ سورة المائدة، آية ٣ .
٢٢ سورة آل عمران، آية ١٧ .
٢٣ سورة الأحزاب، آية ٣٥ .
٢٤ رواه البخاري ٨/١ .
٢٥ رواه البخاري ٨/١-٩ .
٢٦ رواه البخاري ١٥/١ .
٢٧ رواه البخاري ٦٩/٧.
٢٨ رواه البخاري ٧٨/٧ .
٢٩ رواه البخاري ٨٣/٧-٨٤ .
٣٠ رواه البخاري ٨٤/٧ .
٣١ قلت: (كثير جدا) لأن الأصل في الأحكام الثبات وعدم التغيير، إلا للأسباب التي سبق ذكرها.
٣٢ العرف والعادة لأبي سنة ص٤٢ .
٣٣ فقه الواقع لحسين الترتوري، ص٩٩ .
٣٤ الموافقات للشاطبي ٩٠/٤ .
٣٥ الموافقات للشاطبي ٨٩/٤ .
٣٦ الموافقات للشاطبي ٩٨/٤ .
٣٧ الموافقات للشاطبي ٢٠٦/٤-٢٠٩.
٣٨ الموافقات للشاطبي ٩٩/٤-١٠٠ .
٣٩ رواه البخاري برقم ١٤٢٢.

٤٠ رواه البخاري برقم ٦٩٨٠.
٤١ رواه الترمذي برقم ١٥٥.
٤٢ رواه أبو داود برقم ١١٢٩.
٤٣ الموافقات للشاطبي ٤/٩٩-١٠٠ .
٤٤ رواه البخاري برقم ١١.
٤٥ رواه البخاري برقم ٩.
٤٦ رواه مسلم برقم ٣٥٠١.
٤٧ رواه ابن ماجة برقم ٤٢٠٦، قال البوصيري في الزوائد:هذا إسناده صحيح رجاله ثقات.
٤٨ عون المعبود للعظيم أبادي ٥/٩١ . وانظر الموافقات للشاطبي ٤/١٠٢ .
٤٩ الموافقات للشاطبي ٤/٩٩ وما بعدها.
٥٠ سورة ابراهيم، آية ٤.
٥١ سورة النحل، آية ٣٥.
٥٢ أجاب على هذا السؤال: الشيخ عبد الله بن بيه.
٥٣ رواه البخاري برقم ٢٣١٢، ٦٥٥٢ من حديث أنس بن مالك.
٥٤ عبد الرزاق الصنعاني، التفسير، ١/ ١٥٨- ١٥٩.
٥٥ سورة النساء، آية ٣٥.
٥٦ حديث صحيح أخرجه النسائي برقم ٤٠٢٠ من حديث عرفجة الأشجعي.

العقيدة المسيحية والاخر

(المجمع الفاتيكاني الثاني)

الأب د. جمال خضر*

مقدمة

في كل ديانة نصوص مقدسة تحدد طبيعة العلاقة بين المؤمن وباقي البشر من غير المؤمنين بهذا الدين. الا ان تفسير هذه النصوص يتأقلم مع الظروف والمتغيرات في السياق الذي يعيش فيه المؤمن. نبدأ ببعض هذه المتغيرات الدولية والمحلية التي تؤثر على النظرة الى الآخر.

١. المتغيرات الدولية والمحلية.

شهدت السنوات الأخيرة ظهور كثير من المتغيرات السياسية والحضارية والاقتصادية التي دفعت العالم للدخول في حقبة تاريخية جديدة تستدعي نظرة متجددة الى الآخر. وكانت **العولمة** من أهم هذه المتغيرات الدولية التي غيرت موازين القوى العالمية وأثرت في شكل الدولة الحديثة وأدت إلى تقليص مكانتها. بالإضافة إلى ثورة المعلومات وازدياد قيمة المعرفة كقوة، هذا بالإضافة إلى تبني العالم **مفاهيم التعددية** الدينية والثقافية، وقبول الآخر، ونشر مبادئ التسامح الديني والثقافي، وازدياد أهمية حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات، وحقوق المرأة والطفل. ولمواجهة نتائج هذه التغيرات تضافرت الجهود الدولية خلال العقدين الأخيرين من أجل نشر ثقافة الحوار وقيم التسامح، وصدرت عدة قرارات من الأمم المتحدة بهذا الشأن. [١]

وقد بذلت جهود دولية حثيثة لوضع نهاية لثقافة الحرب وبداية **ثقافة الحوار والسلام**، وإدانة الإرهاب والتطهير العرقي والتعصب الثقافي والديني، والإبادة والاستعباد والتمييز، والتربية على التسامح بين الأفراد والجماعات الاثنية والاجتماعية والثقافية والدينية واللغوية لمواجهة التعصب، وتنمية اتجاه اللاعنف واحترام الحقوق والحريات المشتركة، وقبول الاختلاف والتعددية.

من ميزات عصرنا أيضا **التقارب بين الشعوب واتباع الديانات المختلفة**. فقد اختلطت الشعوب من خلال الهجرات والاسفار، كما اقتربت وتداخلت من خلال وسائل الاعلام الحديثة. وهذا الاختلاط يتطلب رؤيا جديدة في التعامل مع الاخر المختلف وتحديد موقفا واضحا منه. فعندما كانت الكنيسة في أوروبا مثلا تتحدث عن الإسلام والمسلمين في القرون الغابرة، كانت تتحدث عن واقع بعيد ونظري؛ اما الان فانها تتحدث عن ملايين المسلمين الموجودين في اوروبا.

كما إن نظرة الكنيسة لدورها في الحياة العامة قد تطور عبر العصور، ولسنا هنا في مجال عرض او تفسير لهذا التطور، وانما نكتفي بما تعلمه وتعيشه الكنيسة في العصر الحديث. ومن ميزات عصرنا ايضا أن الكنيسة الكاثوليكية لم تعد كنيسة "غربية" الطابع والهوية، فوجودها في مختلف انحاء العالم اظهر طابعا عالميا يحوي مختلف الثقافات والشعوب.

* رئيس دائرة الدراسات الدينية – جامعة بيت لحم

٢. تعاليم الكنيسة حول الاخر

عقد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بين عامي ١٩٦٢– ١٩٦٤, وضم حوالي ٢٥٠٠ اسقف من مختلف انحاء العالم. تتميز تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في المجمع الفاتيكاني الثاني باعادة النظر في تعاليم الانجيل في عالم اليوم وبعودة الى اصالة تعاليم الانجيل. نعرض اهم تعاليم الكنيسة حول الآخر:

٢. ١. وحدة الجنس البشري

يبدأ بيان المجمع الفاتيكاني الثاني حول "علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية بتأكيد أن: "كل الشعوب جماعة واحدة ولها اصل واحد لأن الله هو الذي أسكن الجنس البشري بأسره على وجه الأرض كلها[٢] ؛ ولهم غاية أخيرة واحدة وهي الله الذي يشمل[٣] الجميع بعنايته وشهادة جودته وتصاميم خلاصه الى أن يتحد المختارون في المدينة المقدسة التي سينيرها مجد الله وستمشي الامم هناك في نوره[٥]"[٤].

وتضيف أنها : "لا ترذل شيئاً مما هو حق ومقدس في هذه الديانات. بل تنظر بعين الإحترام والصراحة الى تلك الطرق، طرق المسلك والحياة، والى تلك القواعد والتعاليم التي غالباً ما تحمل شعاعاً من تلك الحقيقة التي تنير كل الناس، بالرغم من أنها تختلف في كثير من النقاط عن تلك التي تتمسك بها هي نفسها وتعرضها". فالكنيسة تحث أبناءها على أن يعرفوا ويصونوا ويعززوا تلك المبادئ الروحية والأدبية، وتلك القيم الإجتماعية والثقافية الموجودة لدى الديانات الأخرى، وذلك بالحوار والتعاون مع إتباع هذه الديانات بفطنة ومحبة وبشهادتهم للإيمان وللحياة المسيحية[٦].

ومن هنا إعادة التركيز على لاهوت الخلق، فالكنيسة تذكر ان: "الكتاب المقدس يعلّمنا أن الإنسان خُلِقَ على "صورة الله"، قادرٌ أن يَعرِفَ ويحبَّ خالقَه الذي أقامه سيداً على كلِّ المخلوقات الأرضية[٧] ليتسلَّط عليها ويستخدمها ممجِّداً الله[٨]. "فما الإنسانُ حتى تذكره وإبن الإنسان حتى تفتقده؟ نقَّصته عن الملائكة قليلاً وكلَّلته بالمجد والكرامة. سَلَّطته على أعمالِ يديك وأخضعتَ كلَّ شيءٍ تحت قدميه" (مز ٨ / ٥ – ٧).[٩]

للوصول إلى إستنتاجاتٍ عملية ، تشدِّدُ الكنيسة على إحترام الإنسان: ليعتبرنَّ كل إنسان قريبه، دون إستثناء أحد، "كذاته الأخرى"؛ ليهتمّ قبل كل شيء بوجودِهِ وبالوسائل الضرورية التي تمكنه من عيشٍ كريم[١٠].

في أيامنا هذه خاصة، علينا واجبٌ حتميٌّ يقضي بأن نعتبر أنفسنا أقرباء لكلّ إنسان وأن نخدمه بإندفاعٍ إذا حضر أمامنا، فنذكر كلام الرب القائل: "إن كل ما فعلتموه إلى إخوتي هؤلاء الصغار

فلي أيضاً فعلتموه" (مت ٢٥ / ٤٠)[١١]."يجب أن يمتدَّ احترامُنا وحبُّنا إلى كلِّ الذين يفكّرون ويعملون بطريقة مغايرةٍ لنا، إنْ في القضايا الإجتماعية وإنْ في القضايا السياسية أو الدينية. وبقدرِ ما نجتهدُ في تَفَهُّمِ نظرياتهم تفهماً داخلياً مطبوعاً بالحب والتودد، يَسهل حينئذ الحوار معهم[١٢]".

٢. ٢. المساواة بين البشر

" إنّ جميعَ البشرِ الذين خُلقوا على صورةِ الله وتزيَّنوا بنفسٍ عاقلة ينتمون إلى الطبيعة نفسها و يتحدَّرون من الأَصلِ ذاته. فيجب إذاً أن نعترف دائماً بالمساواة الجوهرية فيما بينهم وبمزيدٍ من التعمُّق.

من المؤكد أن كلَّ الناس ليسوا متساوين في قواهم الجسدية المختلفة، ولا بقواهم العقلية والأدبية المتنوعة. غير أن كلَّ نوعٍ من التمييز يتناول حقوق الإنسان الأساسية، إجتماعية كانت أم ثقافية، سواءً إرتكز على الجنس واللون والعرق وعلى الوضع الإجتماعي أو اللغة، أو الدين، يجب أن يُتعدّى ويُلغى لأنه منافٍ لتصميم الله. علاوةً على ذلك فالبرغمِ من الفوارق الشرعية بين الناس، تفترض مساواةُ البشرِ في الكرامة، الوصول إلى أوضاعِ حياةٍ عادلة وأكثر إنسانية . فعدمُ المساواة الإقتصادية والإجتماعية الجسيمة، بين أعضاء العائلةِ البشرية الواحدة أو بين شعوبها، تثير الشكَّ وتقف عقبةً في وجه العدالة الأجتماعية والإنصاف وكرامةِ الإنسان وفي وجه السلام الإجتماعي والدولي.

فلتجتهدنَّ إذاً المؤسسات الخاصة والعامة، لتكون في خدمة الإنسان ومصيره. وفي الوقت ذاته فلتقاومَنَّ بقوةٍ وفاعليةٍ كلَّ أنواعِ الإستعباد الإجتماعي أو السياسي؛ ولتحافظنَّ على حقوقِ الإنسان الأساسية في ظل كلِّ نظامٍ سياسي[١٣].

٢. ٣. التسامح في المسيحية

جاء في العهد القديم الذي يؤمن به اليهود: "كل ما تكرهُ أن يفعلهُ غيرك بك فإياك أن تفعلهُ أنت بغيرك". وأيضا: "اغتسلوا وتطهّروا وأزيلوا شرَّ أفكاركم (...) وكفّوا عن الإساءة. تعلّموا الإحسان والتمسوا الإنصاف".

وقد تضمن الكتاب المقدس كثيرا من النصوص التي تؤكد على التسامح والغفران، منها ما جاء في الإنجيل المقدس على لسان السيد المسيح: "أحب الرب إلهك لكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك، وأحب قريبك حبك لنفسك. بهاتين الوصيتين ترتبط الشريعة كلها والأنبياء" (متى ٢٢، ٣٩ – ٤٠). "ليحتملن بعضكم بعضا، مسامحين بعضكم بعض، إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا اغفروا أنتم ايضا . (كولوسي٣ : ١٣). "وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين متسامحين كما سامحكم الله أيضا في المسيح" (أفسس ٤ : ٣٢). "ومتى وقفتم تصلون، فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء، لكي يغفر لكم أيضا أبوكم الذي في السموات

زلاتكم، وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر لكم أبوكم الذي في السموات أيضا زلاتكم" (مرقس ١١: ٢٥-٢٦). "تقدم بطرس وقال ليسوع: يا سيد، كم مرةً يخطئ إليَّ أخي وأغفر له؟

أسبعَ مراتٍ؟ فأجابه يسوع: لا سبعَ مراتٍ، بل سبعين مرةً سبعَ مراتٍ" (متى ١٨ : ٢١). وقال يسوع: "يا أبتاه اغفر لهم ، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون" (لوقا ٢٣:٣٤).

بهذه الوصية لخص السيد المسيح تعاليمه، واتبعها بمجموعة من الشروحات، منها عدم الحكم على الآخر:" فلا تدينوا لئلا تدانوا" (متى ٧، ١)، والغريب هو كل إنسان، خاصة أكثرهم حاجة وفقرا (راجع مثل السامري الرحيم، لوقا ١٠، ٢٥ – ٣٧). و"اذ أخطاء إليك أخوك فاذهب أولا وصالح أخاك، ثم عد وقرب قربانك" (متى ٥، ٢٣ – ٢٤) . عندما اعلم يسوع أحد تلاميذه أنهم وجدوا شخصاً يطرد الشياطين ولكنه ليس من أتباع يسوع ، أجابه يسوع: لا تمنعوه، لأنه من لم يكن ضدنا ، كان معنا. (لوقا ٩ ، ٥٠) فمن يعمل الخير، ولو لم يكن من أتباع المسيح، يقرب الناس إلى الله ، وينشر رسالة ملكوت الله، ولو بطريقة غير مباشرة .

أما عن الأعداء والخصوم، فيقول يسوع: "أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، صلوا من أجل مضطهديكم" (متى ٥، ٤٤)، وفي هذه الكلمات قمة تعاليم المسيح عن المحبة والمسامحة ، وفي نهاية حياته ، أرسل يسوع تلاميذه موصياً إياهم: "اذهبوا وبشروا جميع الأمم معلمين إياهم كل ما أوصيتكم به" (متى ٢٨، ١٩)، لينتشر التلاميذ في مختلق بقاع العالم، ناشرين رسالة يسوع، رسالة المحبة والمسامحة.

٣. المسيحية بين النص والسياق:

إذا كانت تعاليم المسيحية بهذا السمو في المحبة والمسامحة، فهل عاش المسيحيون حسب هذه التعاليم ؟

لقد قرأت الجماعة المسيحية كلام المسيح منذ ألفي عام؛ فالكلام هو هو لم يتغير، أما الذي تغير فهو السياق الذي قرئ فيه. فالانتقال من عصر الاضطهاد للمسيحيين من قبل الدولة الرومانية إلى إعلان المسيحية دين الدولة في القرن الرابع، يشكل نقطة تحول بالنسبة للمسيحيين في ذلك الزمان، فالانتقال من وضع "الأقلية" المضطهدة إلى واقع الأغلبية الحاكمة، وحد المسيحيين بعنصر القوة والسلطة والنفوذ. ودام هذا الحال فترة طويلة.

أما في فلسطين، فالمسيحيون قليلو العدد، ولا نقول أنهم أقلية. إلا أن قلة العدد قد تخلق بدورها عقلية أقلية تريد الحفاظ على نفسها لمحاربة خطر الانصهار في الأغلبية، لذلك تلجأ إلى الانغلاق أحياناً، وإلى الانتقال إلى مجتمع يشترك معها بنفس الديانة (الهجرة) أحياناً أخرى.

وفي هاتين الحالتين، نرى أن قراءة الكتاب المقدس تختلف باختلاف السياق. فعند التمتع بالنفوذ، يتم التركيز أحياناً على من يخرج عن هذه الأغلبية (الهراطقة والمنشقين) لمحاولة إرجاعهم إلى

الصف ؛ كما يتم التطلع لمن لا يشاركون الأغلبية إيمانها، فنسعى بمختلف الطرق لدمجهم فيها. "ومن لم يكن معنا، كان علينا". (لوقا ٩، ٥٠)، وما نسعى إليه هو ضمان خلاص هذه الجماعات، " فلا خلاص خارج الكنيسة" (القديس قبريانس، القرن الثالث).

أما قراءة النصوص المقدسة من قبل جماعة قليلة العدد تعيش ضمن أغلبية تختلف عنها في الدين فتتميز في البحث عما يشدد إيمانها ويطمئنها على مستقبلها، "فلا تخافوا" (متى ١٠، ٢٦- ٣١) تصبح سبب طمأنينة وثقة.

وما ينطبق على المسيحيين ينطبق على غيرهم في مسألة الأمانة أو عدم الأمانة لتعاليم الدين، فأحياناً يكونون أكثر قرباً من روح ورسالة الدين، وأحيانا يبتعدون عن هذه التعاليم، ولو ادعوا تمسكهم بالدين وتعاليمه. وفي هذا دعوة مستمرة إلى العودة إلى ينابيع الدين الأصلية، وتطهير ما علق بحياتنا، وأساليبنا مما يتعارض مع تعاليم المسيحية السامية.

ان الانتقال من وضع الاغلبية التي لا تشعر "بتهديد" من الاقلية الى وضع الاقلية تجعل ابناء دين معين يشعرون بتهديد من الاغلبية، وبالتالي نظرتهم الى "الآخر" تتغير ايضا.

٤. المسيحية ايمان وحياة

في إحدى نصوص القرن الثالث للميلاد تقرأ: "أن المسيحيين لا يتميزون بلباس خاص أو لغة خاصة أو عادات وتقاليد خاصة. فهم موجودون في كل بلد ومدينة ، يتكلمون لغتها، ويعيشون بحسب عاداتها".

المسيحيون لا يشكلون شعباً أو أمة. فالمسيحية إيمان وحياة ، يعيشون في مختلف دول العالم ويتكلمون مختلف اللغات ويتعايشون في مختلف البيئات. مع انتشار المسيحية، كانت جماعات تدخل المسيحية وتحافظ على ثقافتها، لا تغير منها سوى ما يتعارض مع الإيمان المسيحي والأخلاق المسيحية.

كان هنالك نقاش أحيانا، خاصة في شرق آسيا وأمريكا الجنوبية، حول تبني "الثقافة المسيحية" مع الإيمان المسيحي. هذه "الثقافة المسيحية" لم تكن في الواقع سوى الثقافة الأوربية التي قامت وامتزجت مع الديانة المسيحية. من هنا لا يجوز الخلط بين المسيحية والثقافة الغربية، خاصة مع انتشار المسيحية في مختلف انحاء العالم وبروز الثقافات المختلفة، خاصة ثقافات العالم الثالث، داخل الكنيسة.

ان الخلط بين المسيحية والثقافة الغربية، او بين المسيحية والسياسات الغربية مجحف بحق المسيحية. المسيحيون في الشرق مسيحيون منذ الفي عام، وثقافتهم شرقية مندمجة في الثقافة العربية، وهم ثقافيا وحضاريا جزء من شعوب الشرق. فالديانة المسيحية ايمان يندمج في مختلف الحضارات.

٥. نظرة الكنيسة الى المسلمين
يقول المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، في الوثيقة الخاصة بالعلاقات مع الديانات غير المسيحية:

"تنظر الكنيسة بعين الإعتبار أيضاً الى المسلمين الذين يعبدون الاله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والأرض[١٤] المكلم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما يخضع له إبراهيم الذي يُسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. وإنهم يجلون يسوع كنبي وأن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون مريم أمه العذراء كما أنهم يدعونها أحياناً بتقوى. علاوة على ذلك أنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت؛ ويعتبرون أيضاً الحياة الأخلاقية ويؤدون العبادة لله لا سيما بالصلاة والزكاة والصوم. وإذا كانت قد نشأت، على مر القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بالخلاص الى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الإجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس"[١٥].

وأهمية هذا النص انه اول نص رسمي للكنيسة الكاثوليكية حول الاسلام، فكان الاساس الذي قام الحوار على اساسه.

صدرت من الكنيسة الكاثوليكية العديد من الوثائق الاخرى، ويضاف لها رسائل بطراكة الشرق الكاثوليك[١٦]، وفيها انتقال من المبادئ العامة الى القضايا الحيوية المشتركة. وقد عقدت العديد من مؤتمرات الحوار بين الكنيسة الكاثوليكية والازهر والعديد من المؤسسات الاسلامية. وعلى الرغم من بعض العقبات، الا ان الحوار اثبت جدواه وأهميته.

٦. العلاقة مع الديانات الاخرى
يقول سفر أعمال الرسل: "إن الله لا يراعي ظاهر الناس. فمن اتقاه من أي امة كانت وعمل البر كان عنده مرضياً". (أعمال ١٠،٣٤-٣٥) . فالعلاقة مع الديانات الأخرى لا تقوم على تسجيل نقاط ، ولا على تقديم تنازلات بل على احترام للآخر، وتقدير للتنوع وبحث عن أسس مشتركة ، وهي كثيرة ، لخدمة الإنسان والمجتمع .

وفي وثيقة "**وقفة حق**"، التي اصدرها مسيحيون فلسطينيون في كانون اول عام ٢٠٠٩, نقول: "أما الدولة الدينية ، اليهودية أو الإسلامية، فهي تخنق الدولة وتحصرها في حدود ضيقة وتجعلها دولة تفضل مواطنا على مواطن وتستثني وتفرق بين مواطنيها. دعوتنا لليهود والمسلمين المتدينين: لتكن الدولة لكل مواطنيها مبنية على احترام الدين، ولكن أيضا على المساواة والعدل والحرية واحترام التعددية، وليس على السيطرة العددية والدينية".[١٧]

المسيحيون الفلسطينيون كانوا دائماً فلسطينيين ١٠٠٪. والدولة الدينية تعني تحويلهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية. لم نكن مواطنين من درجة ثانية ولن نكون .

إن ما يجمعنا كثير: تجمعنا إنسانية واحدة وخالق واحد ومبادئ أخلاقية مشتركة. لنا وطن واحد، فلماذا لا نستطيع العيش معاً بكل تنوعنا واختلافاتنا؟ ما يجمعنا هو أن لنا جميعا خالق واحد؛ فالكتاب المقدس يقول أن الإنسان خلق على صورة الله، وفي هذا تكريم للإنسان ، فالإنسان وكيل الله على الأرض سلمه مسؤولية إدارة شؤون الخليقة.

وإذا كان الله إله لجميع البشر وخالقهم جميعا، فهو "يشرق شمسه على الأشرار والأخيار وينزل مطره على الأبرار والفجار"، كما يقول الكتاب المقدس (إنجيل متى فصل ٦)

٧. المسيحيون في فلسطين: اهل ذمة؟

- نعلم ما تعنيه عبارة "أهل الكتاب" وما فيها من إيجابيات، لكن لدي بعض الملاحظات:

- هنالك غموض أحيانا في تحديد من هم أهل الكتاب وما هو موقعهم. هل هم مشركون أم مؤمنون؟ هل هم "كفار" (يكفرون بالإسلام دينا) كما يسمعنا البعض؟

- مراحل التاريخ المختلفة تعاملت مع أهل الكتاب بطرق مختلفة. نستطيع أن نختار الحقب الايجابية ، لكن هنالك حقب تم التعامل فيها مع أهل الكتاب كأهل ذمة، بطريقة دونية .

- هنالك تمييز بين النظرة الدينية (التي هي إيجابية بشكل عام) لأهل الكتاب، وترجمة ذلك على الصعيد العام من خلال التشريع والقوانين، وما تجربة الحكم العثماني إلا مثال على ذلك حين تم فرز وعزل المسيحيين عن مجتمعهم. المسيحيون يعيشون في كل المجتمعات وفي كل الثقافات حيث يطلب منهم الكتاب المقدس أن يطيعوا ذوي السلطات وأن يصلوا من أجلهم. إذا لم يكن للمسيحيين قوانين خاصة لتنظيم الحياة اليومية، نستطيع أن نتعايش في كل المجتمعات لكن الكتاب المقدس (في سفر أعمال الرسل) يقول: الله أحق بالطاعة من الناس.

خاتمة

تشكل القدس نموذجاً في التعبير عن واقع الصراع أو في البحث عن تعايش. نقرأ في وثيقة "وقفة حق":

"القدس هي القاعدة الروحية لرؤيتنا ولحياتنا كلها، إذ هي مدينة جعل الله لها مكانة خاصة في تاريخ البشرية. فهي المدينة التي تسير إليها جميع الشعوب، وتجتمع فيها على الألفة والمحبة في حضرة الإله الواحد، بحسب رؤية أشعيا: "ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يوطد في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه جميع الأمم... ويحكم بين الأمم، ويقضي للشعوب الكثيرة، فيضربون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب من بعد" (أشعيا ٢، ٢- ٥). فعلى هذه الرؤية النبوية، وعلى الشرعية الدولية في ما يختص بالقدس كلها، وعلى ما فيها اليوم من شعبين وثلاث ديانات، يجب أن يرتكز كل حل سياسي. وهي أول القضايا التي يجب الاتفاق عليها، لان إقرار قداستها ورسالتها سيكون مصدر الهام لحل القضية كلها، وهي قضية ثقة متبادلة ومقدرة مشتركة على بناء "أرض جديدة" في أرض الله هذه. (٩-٥).

****

الهوامش

١. خليفة، محمد: مجلة المعرفة الإرشيفية، ع١٦٣/ ٢٠١٠/٩/٢٩
http://www.almarefh.org/news.php?action=show&id=664
٢. راجع اعمال الرسل ١٧ / ٢٦
٣. راجع سفر الحكمة ٨ / ١؛ اعمال ١٤ / ١٧؛ رومانيين ٢ / ٦-٧. ١ تيموتاوس ٢ / ٤
٤. راجع سفر الرؤيا ٢١ / ٢٣-٢٤
٥. علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية رقم ١
٦. علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية رقم ٢
٧. تك ١ / ٢٦ ، حك ٢ / ٢٣
٨. سير ١٧ /٣ – ١٠
٩. دستور رعائي في الكنيسة في عالم اليوم رقم ١٢
١٠. يع ٢ / ١٥ – ١٦
١١. دستور رعائي في الكنيسة في عالم اليوم رقم٢٧
١٢. دستور رعائي في الكنيسة في عالم اليوم رقم ٢٨
١٣. دستور رعائي في الكنيسة في عالم اليوم رقم ٢٩
١٤. راجع القديس غريغوريوس السابع، رسالته ٢١ الى الناصر ملك موريتانيا: في آباء الكنيسة اللاتينية مجلد ١٤٨ عمود ٤٥٠ وما يلي.
١٥. علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية رقم ٣
١٦. يذكر بشكل خاص: "معا امام الله في سبيل العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي» التي صدرت عام ١٩٩٤
١٧. وثيقة وقفة حق، رقم ٩، ٣

الذمي والمواطنة

د. سعيد القيق*

معنى الذمي لغةً واصطلاحاً.

وردت «الذمة» في معاجم اللغة بمعنى العهد والعقد وبمعنى الكفالة والضمان وبمعنى الأمان وبمعنى الحق والحرمة [١] ونقول رجل ذمي: أي رجل له عهد أو عقد ومن ذلك يسمى أهل الذمة أهل العهد أو أهل العقد وهم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيمون في الدولة الإسلامية وتكون إقامتهم دائمة، وذلك أن الإسلام بسماحته لا يمنع غير المسلمين من مخالطة المسلمين و الإقامة في دار الإسلام.

وقد أقر عدد من الفقهاء بأن الذميين من أهل دار الإسلام ومعنى ذلك أن الذميين يعتبرون من أفراد شعب دار الإسلام ومرتبطون بالدولة الإسلامية بما يسمى برابطة الجنسية [٢]

ويفقد الذمي هذه الجنسية إذا قام بما تنتقض به الذمة كالتحاقه بدار الأعداء فتنقطع بذلك صلته بدار الإسلام ولا يوجد غرابة في ذلك طالما أن أي مواطن مسلما كان أم ذميا يعاقب إذا ما تعامل مع العدو وقد تصل العقوبة إلى حد سحب الجنسية منه. أما إذا لم يظهر من الذمي ما يدل على نقض العهد، فليس للدولة الإسلامية الحق في إسقاط الجنسية عنه.

وقد أفردت الشريعة الإسلامية للذميين معاملة خاصة لا يمكن إدراك مستواها الحضاري إلا إذا ألقى الإنسان المفكر أو المؤرخ نظرة على معاملة (الأجانب) في مختلف النظم التي سبقت قيام الإسلام أو النظم التي صاحبت قيامه أو النظم التي تلته [٣]

ورغم أن مفهوم الذمة شابته شوائب استغلت في تشويهه إلا أنه يظل معلماً بارزاً من معالم السماحة والتحضر في حضارة الإسلام التي تأسست على مبدأ «لا إكراه في الدين» [٤] وقوله تعالى «لكم دينكم ولي دين»[٥]، ومع ذلك فإن هذا المفهوم (أهل الذمة) ليس من الألفاظ الشرعية الملزمة فإذا فهم منه معنى التحقير من مواطني الدولة غير المسلمين فيمكن الاستعاضة عنه بأي مفهوم آخر تجنباً للبس مثل (مفهوم المواطنة) ما دام يحقق المبدأ الإسلامي في المساواة بين المواطنين وذلك على قاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وقد قال بذلك الشيخ يوسف القرضاوي واتفق معه في ذلك الشيخ راشد الغنوشي ألَّذي أكدَّ أيضا على قدرة الإسلام على تأصيل فكرة المواطنة في ثقافتنا حتى لا تبقى مجرد شعار.

وأكد الشيخ القرضاوي على أن السلم هو الأصل في العلاقة مع غير المسلم وأن الجهاد لم يجعل أداة لفرض الإسلام على مخالفيه لأن ذلك مخالف لروح ومقاصد الشريعة التي جاءت لتعلي

* عميد كليتي الدعوة واصول الدين، والقرآن والدراسات الإسلامية – جامعة القدس

من حريات الإنسان وتحمله بعد إقامة الحجة عليه مسؤولية مصيره «ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة[٦]» «ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»[٧] وإنما هو سبيل لدفع العدوان وإتاحة حرية الاختيار والعبادة للناس آمنين من كل فتنة وإكراه وحسابهم على الله[٨].

ويذكر الدكتور محمد عمارة أن المواطنة اقترنت بظهور الإسلام ويعرفها بالتفاعل بين الإنسان والوطن الّذي ينتمي إليه فهي علاقة تفاعلية لكونها تقوم على مبدأ الحقوق والواجبات ومن هذه الواجبات التي تتحقق بها صفات المواطنة أن يحترم هويته الوطنية ويؤمن بها ويدافع عن كل عناصرها وثوابتها: الأرض واللغة والتاريخ والقيم والآداب العامة. أما الحقوق التي يحصل عليها المواطن بموجب هذه العملية التفاعلية فأهمها المساواة في تكافؤ الفرص وانتفاء التمييز في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بسبب اللون أو الطبقة أو الدين مع تحقيق التكافل الاجتماعي ألّذي يجعل الأمة سداً واحداً وكيانا مترابطاً.[٩]

مقارنة بين المواطنة في الفكر الغربي الحديث والفكر الإسلامي :

المواطنة كلمة مشتقة من وطن نقول توطن وطنا بالمكان : أقام به ، وطن البلد اتخذه وطنا وأوطن إيطانا بالمكان أقام به واستوطن البلد اتخذه وطنا والوطن جمعه أوطان ومنه منزل إقامة الإنسان الذي ولد فيه.

والمواطن في الإسلام هو كل فرد اتخذ أرض الإسلام له وطنا سواء كان مسلما أو غير مسلم من أهل الكتاب أو أهل الذمة وهناك فرق بين أهل الكتاب وأهل الذمة.

يرتبط مفهوم المواطنة في الفكر السياسي الحديث بالدولة القومية من جهة والديموقراطية من جهة أُخرى.

وقد سادت قبل الدولة القومية في أوروبا إمبراطوريات جامعة لعدة أعراق وقوميات كان الرابط الديني الجامع لها ثم تفككت تلك الإمبراطوريات وتشكلت على أنقاضها دول قومية بحثت لها عن مصادر بديلة للشرعية تبلورت بعد سلسلة من التطورات الفكرية والحروب الدينية في معاهدة وستفاليا بين الدول الأوروبية في منتصف القرن السابع عشر في ما هو متعارف من دول قومية علمانية وديموقراطية يتمتع فيها كل سكانها على اختلاف الدين والعرف بحقوق متساوية باعتبارهم مواطنين تنطلق حقوقهم من الاشتراك في الأرض .

والذي يجب التأكيد عليه أن الارتباط بين الدولة والقومية والعلمانية والديموقراطية من جهة والمواطنة من جهة اخرى لا يحمل أي دلالة لزومية وإنَّما مجرد حدث في التاريخ الغربي والدليل أن أوروبا عرفت دولا قومية علمانية لا تعترف بكل مواطنيها بحق المساواة بل اقترفت في حقهم إضطهاداً بلغ حد الإبادة كما فعلت النازية والفاشية. ولم يكتسب السود في الولايات المتحدة مع أنها دولية قويمة علمانية حقوق المواطنة ولو من الناحية النظرية إلا في الستينات من القرن الماضي ولا يزال المسلمون يتعرضون وكذلك أعراق وديانات أُخرى لظروف بشعة من التمييز

والقمع في دول قومية علمانية عديدة مما يؤكد أن هذا الربط لا يحمل أي دلالات عابرة للتاريخ وإنَّما هو مجرد واقعة ومقابل ذلك قامت في الغرب والشرق حكومات ديموقراطية على أساس المواطنة دون أن تكون علمانية بل تبنت ديناً رسمياً مثل المملكة المتحدة حيث جمعت بين السلطة الدينية والسياسية.

التطبيق الإسلامي لحقوق المواطنة:

قبل أن نتطرق لهذه القضايا الشائكة لابد وأن نعود للتاريخ فقبل ظهور الإسلام وخروجه من جزيرة العرب وقبل اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانضمام عناصر كثيرة من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي فكيف كان حال أبناء المستعمرات في العراق والشام ومصر وغيرها من الأمصار المستعمرة من قبل الدولتين العظميين؟

كان غزو هذا البلد أو ذاك واحتلاله بالقوة يعني أن البلد بكل ما فيه من أراضي وممتلكات ومن فيه من بشر صار ملكا لكسرى أو قيصر، إن شاء نكل بأهل البلد أو صيرهم عبيداً، وكانت المواطنة حق وميزة، لا يتمتع بها إلا أبناء الفرس والروم، والضرائب تفرض على أبناء المستعمرات دون أن يحق لهم الاعتراض أو التحفظ وكان المواطنون الرومان أو الفرس مميزين مكانة ومنزلة عن سائر السكان.

وكان أبناء المستعمرات محرومين من الانخراط في سلك الجندية وإذا حدث فإنه يتم تجنيدهم في بلاد أخرى غير بلادهم.

في ذلك العصر خرج المسلمون من جزيرة العرب ليفتحوا الأمصار فهل فعلوا في أهل الأمصار مثلما فعل الفرس والروم؟ إن التاريخ يقول: إن الأجهزة الإدارية في الولايات التي فتحها المسلمون كان أغلب العاملين فيها من أبناء هذه الولايات وسواء من اعتنق منهم الإسلام أو من لم يعتنقه وفي مراحل تالية تبوأ عدد من المسيحيين واليهود مناصب قيادية « كالوزارات مثلاً» في العديد من الدول الإسلامية لدرجة أن (آدم ميتز) تعجب لكثرة غير المسلمين في المناصب القيادية في الدولة الإسلامية قائلاً: كان النصارى هم اللذين يحكمون المسلمين في بلاد المسلمين ولعل في هذا أبلغ رد على الذين يقولون بأن الإسلام يحرم الآخر من حقوقه السياسية فكيف نتحدث عن حق المسيحي أو اليهودي في الانتخاب أو الترشيح لمجلس نيابي وقد كان من اليهود والنصارى وزاراء في دولة كان الدين فيها هو العنصر الرئيسي الذي يستمد منه الحكم الشرعي وقبل ذلك كله فان وثيقة المدينة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم لهي أبين دليل وبرهان على منح الإسلام حق المواطنة والحقوق السياسية للذمي المقيم في المجتمع والدولة الإسلاميين.

ومن نصوص وثيقة المدينة أن يهود بني عوف يكونون أمة مع المسلمين (أمة السياسة والمواطنة) ولكل فريق حق الاعتقاد وكافة الحقوق المدنية إلا ما يهدد سلامة وأمن المدينة أو يفتت هذه الوحدة فهل بعد ذلك حديث عن نفي الإسلام لحقوق الذمي في المواطنة وممارسة حقوقه

السياسية. وعلى ذلك فإن ما جاء في التاريخ الإسلامي من تطبيقات فيها جوانب التشدد مع غير المسلمين، كانت مرهونة بأوقاتها وظروفها، وليست قاعدة تعامل. والقيود لم تكن مقصورة عليهم وحدهم و ما يُشاع في عدد من الكتابات غير الدقيقة عن التمييز بين المسلمين والمسيحيين في أزيائهم وأطعمتهم وحياتهم الاجتماعية، ناهيك عن تذرع البعض بعدم إجازة بناء دور العبادة لأهل الكتاب. يرد عليه أنه يُجدر التمييز أولا بين مرحلة انتشار الدعوة الإسلامية وزمن الفتوحات وبين المرحلة المعاصرة. في المرحلة الأولى كان الحذر مسيطراً على أمصار المسلمين خشية الهجمات من الخارج، وحفاظاً على الدعوة وتأميناً لانتشارها والدفاع عنها. أما وأن الإسلام انتشر عالمياً، وبات موجوداً في بلاد الغرب كما الشرق وفي شمال العالم وجنوبه، ناهيك عن تطور وسائل الاتصال والمواصلات الّتي تربط الشعوب والثقافات والمعتقدات على اختلافها... فلم تعد هناك خشية من تراجع الإسلام كعقيدة. بل يمكن القول أن الحضارة الإسلامية احتلت مكانة ثابتة في صرح الحضارات الإنسانية كافة، بعدما سبقتها في مختلف الميادين والحقول.

في زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين لم يكن هناك وثائق أو هويات شخصية تحدد معتقد المواطن. وكان التمييز في اللباس أحيانا ناتجا عن الحاجة الى تسهيل المعاملات وممارسة المعتقدات، وليس بدافع التحقير أو تصنيف البشر بين فئات. وإذا ما ارتكبت أخطاء في عهود محددة لخلفاء وأمراء مسلمين يجهلون أسس العقيدة وأصول الفقه، فإنها لا تلغي القاعدة العامة من حيث أن الإسلام هو دين التسامح، والرحمة، والتعاون الإنساني، والعدل، والسلام.

في المرحلة الأولى التي أشرنا إليها، التبس الأمر حول جواز بناء الكنائس في أمصار المسلمين. في تلك المرحلة كان منع بناء الكنائس يندرج في تجنب الفتنة، والحيلولة دون وقوع الاضطراب الداخلي. ولم تندرج في اية حال من الأحوال في خانة التضييق على المعتقد المسيحي كما يردد الحاقدون والجاهلون. على ذلك اتجه ويتجه الرأي الفقهي الراجح الى جواز بناء المعابد لأهل الذمة، أو أهل الكتاب. وهذا ما قرره الفقه الزيدي والفقه المالكي وفقهاء معاصرون.[١٠] إن الدراسة الموضوعية لتطور الدعوة الإسلامية، والعوامل الخارجية التي ضغطت على انطلاقتها، وخشية المسلمين من انكفاء عقيدتهم عالميا في مراحل معينة... تفسر أسباب التشدد أحيانا تجاه غير المسلمين وبينهم أهل الكتاب، وهذه القيود لم تكن مقصورة عليهم وحدهم وإنما كانت في بعض الظروف على المواطنين جميعا، ولا تكاد تخرج في إطارها العام عن قوانين الطوارئ المعاصرة. [١١]

أما الجزية فهي مشتقة من الجزاء وهي مبلغ من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب وغيرهم. وهي في حقيقتها بدل للدفاع والحماية و يفرض الإسلام الجزية على غير المسلمين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتساوى الفريقان لان المسلمين وغير المسلمين يستظلون براية واحدة ويتمتعون بجميع الحقوق وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة ولذلك أوجب الله الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن غير المسلمين وحمايتهم والدفاع عن أعراضهم وأموالهم ودور عبادتهم وحرياتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها ولهذا تجب بعد دفعها حمايتهم والمحافظة عليهم ودفع من قصدهم بأذى[١٢]، بمعنى انه إذا اتيح لأهل الذمة المشاركة في دفع العدو فلا تؤخذ منهم جزية. بل أكثر من هذا وهو ما تم العمل

به على ارض الواقع انه إذا شُغلت قوات وجيوش الدولة المسلمة التي يعيش أهل الذمة تحت رعايتها وعجزت عن حمايتهم، فانها ترد إليهم ما سبق أخذه منهم من الجزية وهذا ما حصل بالفعل من القائد أبو عبيدة عامر بن الجراح حيث رد على أهل حمص الجزية التي أخذها منهم عندما اضطر للانسحاب من المدينة بعد حشد الروم لجيوشهم ضد المسلمين. أيضا صالح أبو عبيدة أهل السامرة على إسقاط الجزية عنهم مقابل أن يكونوا عيونا وأولياء للمسلمين.

كما أن الذين تنطبق عليهم شروط الجزية ليسوا سوى الذين تنطبق عليهم شروط الجندية هم الذين يطالبون بالقتال في أي بلد إذا ما دقت طبول الحرب فإذا لم يشتركوا في القتال وذهب غيرهم ليصدوا العدوان ويموتوا في ساحة القتال فليس ظلما على الإطلاق ان يدفع القاعدون مقابلا لهذه الميزة.

ويذهب الكاتب فهمي هويدي إلى أنه ما دام غير المسلمين في الدولة الحديثة يقومون بأداء الخدمة العسكرية والدفاع عن الدولة مثلهم مثل المسلمين فبذلك تسقط عنهم الجزية. ونقول إذا كان البعض من المسلمين يتشددون في حق الذمي ويقلصون حقوقه التي أقرها الإسلام لسوء قراءتهم وفهمهم للنصوص الدينية والبعض الآخر من غير المسلمين يتحدثون عن عمد أو حقد أو عن جهل عن قسوة الإسلام على غير المسلم حتى انهم وصفوا المسلم الذي يدافع عن نفسه وأرضه بأنه إرهابي.

فيكفي ان نضع ما قاله الرحمة المهداة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) امام محكمة التاريخ لنرى هل طالب حاكم أو سياسي أو قائد أو مصلح اجتماعي أهل ملته بما طالب به الرسول الكريم المسلمين من حسن معاملة أهل الكتاب من الذميين؟ حيث يقول: « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»[١٣] فكيف يظلم الإسلام الذميين ورسول الإسلام يحذر المسلمين انه سيكون خصم من ظلم معاهدا أو ذمياً.

وكان عمر بن الخطاب يسال عن أحوالهم دوما ويقول الشيخ محمد الغزالي أنه حين طعن عمر بن الخطاب في صلاة الفجر وعلم الجميع انه ميت أوصى الخليفة بعده بالذميين وعدم الأذى وعدم تكليفهم مالا يطيقون وكذلك فعل علي وعثمان والصحابة والسلف الصالح معهم.[١٤]

ولذا صرح بعض الفقهاء أن ظلم الذمي أكثر إثما من ظلم المسلم أما من وصل الى قتله فقد ارتكب كبيرة من الكبائر حيث روى البخاري في صحيحه عنه (صلى الله عليه وسلم) «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً».

وهذا ما أردت أن أوضحه في هذه العجالة والحديث يطول في هذا الموضوع.

هل يصح البديل عن الجزية ؟

دفع الجزية هو كأي ضريبة تفرضها الدولة على رعاياها لرعاية شؤونهم وحماية أوطانهم. فكل من يحمل تابعية الدولة أي دولة اليوم تفرض عليه ضريبة معينة حسب دخله في حين أن الإسلام يفرض الجزية على الجميع بالتساوي ثم يستثنى الفقراء وهناك الكثير ممن تأثروا بالغزو الفكري يرى أن عقد الذمة وفرض الجزية إذلال لغير المسلمين فلماذا لا تتغير التسمية؟ قبل ذلك نقول بأن عقد الذمة ليس فيه إذلال فهو مأخوذ من قولنا (كما أسلفنا) هو في ذمتي أي في عهدتي وتحت حمايتي ومسؤوليتي وهذا تشريف وليس إذلالاً، ومع ذلك فقد رضي عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قبيلة تغلب العربية النصرانية أن يؤدوا الضريبة تحت عنوان الزكاة لا الجزية كما ارتضى فقهاء معاصرون كبار مثل الشيخ يوسف القرضاوي وعبد الكريم زيدان اعتبار أن الجزية هي المقابل للخدمة العسكرية فإذا غدت هذه جزءا من واجبات المواطن بصرف النظر عن دينه لا يبقى لها مكان لا سيما وقد قامت كما يقول الدكتور محمد سليم العوا دولنا الإسلامية الحديثة على أساس المواطنة أي الاشتراك في امتلاك الوطن من كل سكانه بغض النظر عن دياناتهم بعد أن اشتركوا في تحريره من الاحتلال فقامت شرعية التحرير أساساً لمجتمعاتنا الإسلامية في الفكر الحديث وهو ما أرسى أساسا مشتركا للحقوق والواجبات بين كل المواطنين على اختلاف اتجاهاتهم وعقائدهم.

حقوق أهل الذمة:

لقد بينت الأحاديث النبوية الشريفة وما عقد من معاهدات مع أهل الذمة الحقوق التي كفلها الإسلام لأهل الذمة.

وقد أرسى الإسلام القاعدة الأساسية في بيان هذه الحقوق فهي أن لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات ومن هذه الحقوق:

حق المواطنة : وهذا الحق مكتسب بعقد أهل الذمة الدائم وهذا ما أقره الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أهل الكتاب في المدينة إذ أنه لم يخرجهم إلا بعد نقضهم للعهود مع المسلمين وكذلك إقراره (صلى الله عليه وسلم) أهل نجران من النصارى وإقرار الخلفاء الراشدين أهل الكتاب في الشام والعراق وغيرهم على حق المواطنة محتفظين بحقوقهم كمسلمين.

الحقوق الدينية : تشمل الإشراف على كنائسهم ومعابدهم وحق أداء شعائرهم التعبدية وعدم التعدي على مقدساتهم.

وتعتبر العهدة العمرية خير مثال على ذلك حيث أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم.

الحقوق الشخصية: قرر الإسلام لغير المسلمين حقوقهم الشخصية في مأكلهم ومشربهم ولباسهم. حمى الإسلام كرامة أهل الذمة وصان حقوقهم فعاشوا في ظل سماحة الإسلام وعدله فقد أباح الإسلام زيارتهم وعيادة مرضاهم، ومؤاكلتهم، والزواج من المحصنات من أهل الكتاب منهم، وأعطاهم الحقوق التالية:

- حق المساواة أمام القضاء: سوى الإسلام بين أهل الذمة والمسلمين أمام القضاء والقانون وحسن المعاملة، لذلك حرم الإسلام الاعتداء عليهم وعلى أموالهم وأعراضهم.
- حق الرعاية وضمانة الحاجات الأساسية.
- حق الترشيح لمجلس الشورى.
- حق تولي مناصب الوظائف العامة الإدارية والفنية باستثناء رئاسة الدولة لأنها وظيفة دينية.

واجبات أهل الذمة:

الالتزام بدفع التكاليف المالية المنصوص عليها في عقد الذمة تؤخذ من القادر منهم مقابل أن تؤمن لهم الدولة الخدمات التي تقدمها للمسلمين.

أن يلتزموا بأحكام الإسلام بالمعاملات المتعلقة بالحياة العامة وأن يخضعوا لنظام العقوبات كالمسلمين.
أن يلتزموا بالدفاع عن حدود الدولة بأموالهم وأنفسهم .
أن يلتزموا بالآداب العامة.
أمّا أحكام الأسرة من زواج وطلاق فلهم حرية العقود وفق شريعتهم ويتركوا أحراراً في عبادتهم.

الحفاظ على أمن الدولة والوطن.

وكلمة أخيرة لابد من ذكرها وهي أن الإسلام أحوج ما يكون إلى من يحسن عرضه على الناس والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وجوهر ذلك الاعتدال في الخطاب والحرص على كسب العقول والقلوب وذلك لا يأتي إلا بالابتعاد عن التطرف وعن تبني الآراء المسبقة. إن إبراز خصائص الإسلام وعلى رأسها الوسطية أمر في غاية الأهمية ونحن نرى أعداءه يرمونه بما ليس فيه من تطرف وإرهاب وإقصاء للآخرين وبث الكراهية والتعصب ومما يؤسف له ان نفرا ممن ينتسبون لهاذا الدين يساعدونهم في ذلك من خلال إساءتهم لتطبيق الإسلام تطبيقا بعيداً عن هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) وكذلك يسيئون إلى هذا الدين من خلال عرضه عرضا سيئا كما أسلفنا آنفا.

١ ابن منظور لسان العرب
٢ الكاساني بدائع الصنائع ٩/ ٤٣٢٨؛ وابن الهمام فتح القدير ٤/٣٧٥،٣٦٩
٣ حامد سلطان، أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية (٢١٨/٢٢٦).
٤ سورة البقرة، آية ٢٥٦
٥ سورة الكافرون، آية ٦
٦ سورة الأنفال، آية ٢٤
٧ سورة النساء، آية ٥٦١
٨ يوسف القرضاوي، فقه الجهاد.
٩ محمد عمارة، حقوق المواطنة في الإسلام.
١٠ عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ص٥٣
١١ عبد العزيز كامل، «حقوق الإنسان في الإسلام» في معاملة غير المسلمين في الإسلام، ص٩٧
١٢ السيد سابق، فقه السنة، ط١ ٢٠٠٠، المجلد الثالث، ص ٤٩
١٣ حديث حسن، أخرجه أبو داود.
١٤ محمد الغزالي، الحق المر، ص١٠٩.

أثر الإسرائيليات في الأدبيات الإسلامية

الدكتور موسى اسماعيل البسيط *

بين يدي الموضوع

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد،

فإن العلاقة بين الإسلام والأديان السماوية الأخرى تكمن في أن هذه الديانات جميعاً تتبع من أصل واحد وتقوم على أساس واحد هو؛ الدعوة إلى الإيمان بالله وحده. أما الاختلاف بين الديانات إنما هو في الشرائع التي سنها الله لأهلها لتتلاءم معهم زماناً وبيئة ومصلحة .

ولقد أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتب، مبشرين ومنذرين، وكان خاتم النبيين والمرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم)، أنزل معه القرآن وكتب له الخلود وحماه من التحريف والتبديل (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عزيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[1] وقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2]

لكن الكتب الأخرى لم يتكفل الله تعالى بحفظها ، بل أوْكل حفظها للبشر حتى امتدت لها يد التحريف والتبديل، وقد وصف الله القرآن بأنه المصدق للكتب السماوية السابقة والمهيمن عليها فقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)[3] فالقرآن يصدقها فيما جاءت به من عقيدة الإيمان بالله وحده والإيمان باليوم الآخر،(ومهيمنا عليه) أي رقيباً على الكتب السماوية: يقرر أصول شرائعها وما ثبت منها وما لم يثبت، وما نُسخ فيها وما أحكم .

إن وحي الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والمتمثل في القرآن والسنة يمثل النسخة الأخيرة من الخطاب الإلهي الموجّه إلى البشرية، فقد جاء هذا الدين متمماً ومكملاً لمسيرة الأنبياء جميعاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

> (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة)[4]

وهذا الدين الذي يوصف بالعالمية، والإنسانية، والشمول يحرص على حسن التعامل والتعايش مع أصحاب الديانات الأخرى؛ حيث يعترف بأديانهم الأصلية، وبكتبهم المنزلة قبل التحريف، ويتعامل مع ثقافاتهم بروح التسامح، ويسعى للأخذ والإفادة من معارفهم وعلومهم.

* استاذ مشارك في جامعة القدس

إن القرآن لا يفتأ يدعو إلى الحوار مع أهل الكتاب، ومجادلتهم بالحجة والبرهان، ودعوتهم إلى كلمة سواء: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[٥]

إنها العلاقة التحاورية التعاونية لا التصادمية التسلطية التي ينتهجها الغرب هذه الأيام.

إن الأدبيات الإسلامية لتزخر بتراث وافر لأهل الكتاب؛ فالقرآن أسهب أيما إسهاب في ذكر أحوال أهل الكتاب، وأخبارهم، وشرائعهم، وما كانوا عليه، وكذلك السنّة النبوية المشرفة : فيها أخبار أنبياء بني إسرائيل وشعوبهم، والأخبار والأحداث في روايات صحيحة نقرأها ونتدارسها.

وفي ضوء ذلك فقد ذاع وشاع مصطلحٌ يعكس حالة من حالات الارتباط الثقافي بين المسلمين منذ بداية العصر الإسلامي _ يعرف ب «الإسرائيليات» فرغبتُ أن أتناول بالبحث موضوع الإسرائيليات؛ معرفاً بها ، مبيناً الموقف منها رواية وأخذاً، وصولاً إلى بيان تأثيرها في الأدبيات الإسلامية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أهمية الدراسة :

تنبع أهمية الدراسة من كونها ترصد حدود تأثّر الأدبيات الإسلامية بأقسامها ومكوناتها بالإسرائيليات، ومدى قبول هذه الإسرائيليات في الفكر الإسلامي ،خاصة أن التراث الإسرائيلي كان تراثاً سابقاً في الزمان على التراث الإسلامي، وله ذات الجذور التي صدرت عنها الثقافة والأدبيات الإسلامية .

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى ما يلي :

- تجلية الموقف من الإسرائيليات .
- بيان العلاقة بين الأدبيات الإسلامية والإسرائيليات.
- إظهار انفتاح الثقافة الإسلامية على الأخذ من الثقافات الأخرى مع مراعاة حدود وضوابط .

اسئلة الدراسة

ما هي الإسرائيليات؟ ولماذا مصطلح الإسرائيليات؟ وما مصادر الإسرائيليات؟ وما الجوانب التي تأثرت بالإسرائيليات في الأدبيات الإسلامية؟ وما تاريخ دخول الإسرائيليات في الأدبيات الإسلامية؟ وما أسباب تسرّب الإسرائيليات إلى الأدبيات الإسلامية؟ وما أقسام الإسرائيليات باعتبار القبول أو الرد؟ وما الموقف من الإسرائيليات؟ وما دلالات دخول الإسرائيليات إلى الأدبيات الإسلامية؟

تعريف المصطلح :

(الإسرائيليات) جمع (إسرائيلية) وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي.[٦]

ولفظ الإسرائيليات– وإن كان يدل بظاهره على القصص التي تُروى أصلا عن مصادر يهودية– يستعمله علماء التفسير والحديث، ويطلقونه على مجال أوسع وأشمل من القصص اليهودي، فهو في اصطلاحهم يدل على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما.

وأطلق علماء التفسير والحديث مصطلح (الإسرائيليات) على كل ذلك من باب التغليب للّون اليهودي على غيره لأن غالب ما يُروى من الخرافات والأباطيل يرجع في أصله إلى مصدر يهودي.[٧]

وعرفها الدكتور محسن عبد الحميد بأنها (اصطلاح أطلقه المدققون من علماء الإسلام على القصص والأخبار اليهودية والنصرانية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي بعد دخول جمع من اليهود والنصارى إلى الإسلام أو تظاهرهم بالدخول فيه).[٨]

إذا هي أخبار أو حوادث نُقلت إلينا عن طريق أهل الكتاب مع مراعاة معرفة أن نسبتها إلى المعرّف على سبيل التغليب.[٩]

مصادر الإسرائيليات

تُستمد الإسرائيليات من كتب التوراة الخمسة، وأسفار العهد القديم غير التوراة، وكذلك من التلمود والمشناة والجماراة، وما وجد لديهم من الأدب اليهودي والقصص والتاريخ والأساطير والخرافات والأباطيل المستمدة من الأمم التي خلت من قبل اليهود .

اما النصارى فكانت ثقافتهم مستمدة من الإناجيل الأربعة وأعمال الرسل ورسائل بولس ورسائل لآخرين وسفر الرؤيا، وما زادوه من القصص والأخبار والتعاليم، كل هذه تعدّ منابع للإسرائيليات التي ملأت كتب التفسير والتاريخ والمواعظ، ولعل ما في الأدبيات الإسلامية من المسيحيات شيئاً قليلاً.[١٠] لقد اشتملت هذه المصادر على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان معتمداً على قصص الأنبياء، إلا أن القرآن الكريم حين يعرض للقصص لا يسهب في التفاصيل والجزئيات التي لا فائدة منها، وإنما يقتصر على مواضع العبرة؛ فمثلا في قصة آدم عليه السلام لم يتعرض القرآن لمكان الجنة، ولا لنوع الشجرة، ولا للبقعة التي هبط إليها آدم. لكن التوراة ذكرت أن الجنة في عدن شرقاً، وأن الشجرة هي شجرة الحياة، وأن الذي خاطب حواء هي الحية.[١١]

واشتمل القرآن على موضوعات وردت في الإنجيل: منها قصة عيسى ومريم، ولكن بأسلوب موجز ، لم يتعرض فيه إلى النَسَب، ولا الولادة أو المكان الذي ولدت فيه، ولا لذكر الشخص الذي قُذفت به مريم ، كما لم يتعرض لأنواع الطعام الذي نزلت به المائدة، ولا لحوادث جزئية من

إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، في حين حوى الإنجيل على جزئيات وتفاصيل ذلك كله ، وهنا كان توجه المسلمين نحو هذه المصادر؛ يقتبسون منها بقدر ما يرون فيه شرحاً لغموض أو تفصيلاً لإيجاز.[١٢]

كيف تسربت الإسرائيليات إلى الأدبيات الإسلامية ؟

تسرّب الإسرائيليات إلى الأدبيات الإسلامية مسبوق بتسرب الثقافة الإسرائيلية إلى الثقافة العربية في العصر الجاهلي، فالعرب في جاهليتهم كان يقيم بينهم جماعةٌ من اليهود الذين هاجروا إلى جزيرة العرب منذ القِدم .

وقد حمل اليهود معهم إلى جزيرة العرب ما حملوا من ثقافات مستمدة من كتبهم الدينية، وما يتصل بها من شروح، وما توارثوه جيلا بعد جيل عن أنبيائهم وأحبارهم. وكان للعرب في جاهليتهم رحلات يرحلونها في الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، وفيهما كثير من اليهود والنصارى، وبدهي أن تكون اللقاءات والمحاورات بين العرب ومن يستوطن تلك البقاع، يجتمعون فيها مع كثير من اهل الكتاب يهوداً أو نصارى، وهذه اللقاءات بين العرب واليهود من جهة والعرب والنصارى من جهة أخرى كانت عاملاً قوياً من عوامل تسرب الثقافة اليهودية والنصرانية إلى مجتمع الجزيرة العربية.[١٣]

وكان اليهود القاطنون في المدينة المنورة قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) يبثّون ما لديهم في كتبهم. ومن ذلك أنهم كانوا يستفتحون أي- يستنصرون- على العرب من توراتهم بمجيء نبي قد أظلّ زمانه؛ أوصافُه مفصلّةٌ في كتابهم ويقولون :

"إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم".[١٤]

وكانت اللقاءات والمحاورات كثيراً ما تتم بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وبين اليهود وغيرهم في المدينة: يسألونه عن بعض ما يعنّ لهم تحدياً أو تعجيزاً أو اختباراً لصدق نبوّته، أو ليحكّموه فيما شجر بينهم. وكذلك كانت تتم لقاءات ومناقشات بين بعض المسلمين واليهود تقع فيها استفسارات .

ومن أهم السبل التي تسربت من خلالها الإسرائيليات دخول جماعات من علماءِ اليهود وأحبارِهم في الإسلام أمثال:

عبد الله بن سلام، وعبد الله بن صوريا، وكعب الأحبار، وغيرهم ممن كان لهم ثقافات يهودية واسعة ، وكانت لهم بين المسلمين مكانة مرموقة، وبهذا كله التحمت الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية بصورة واسعة.[١٥]

لقد كان الصحابي إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى الاطلاع على

مزيد من التفاصيل والجزئيات التي لم يعرض لها القرآن، فلا يجد من يجيبه سوى هؤلاء النفر الذين أسلموا من أهل الكتاب وكان لديهم معرفة بالثقافتين اليهودية والنصرانية. ثم جاء عصر التابعين وفيه اتسع النقل، ونمت رواية الإسرائيليات في التفسير والحديث نمواً مريعاً وكان مرجع ذلك كثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب، وشدة ميل نفوس القوم لسماعها من كتبهم، ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه وأفرط في الأخذ منها.[١٦]

<u>الجوانب التي تأثرت بالإسرائيليات من الأدبيات الإسلامية</u>

تأثرت جوانب الثقافة الإسلامية بالإسرائيليات، فالكتب المصنفة في التاريخ حفلت بنصيب وافر من الكلام على تاريخ بني إسرائيل وأخبارهم وما جرى منهم ولهم من حوادث ووقائع، وكثير منه غير موثق وفق قواعد المحدثين كما نطلع في تاريخ الطبري ومن بعده في تاريخ ابن كثير.

ومن الجوانب التي تأثرت كذلك علوم الجدل والكلام، فنجد بعض ما فيها من معتقدات لبعض الفرق الإسلامية مصدره الإسرائيليات، وتقليد أفكارهم العقدية التي اعتقدوا بها وساروا عليها، وهذا ابن الأثير في تاريخه يورد لنا أن منشأ القول بخلق القرآن إنما هي فكرة يهودية منبعها لبيد بن الأعصم.[١٧]

وكذلك عقيدة الرجعة عند الشيعة، وأن علياً لم يقتل، وإنما صعد إلى السماء كما رُفع عيسى، هي عقيدة وضعها عبد الله بن سبأ اليهودي [١٨]

وفي جوانب التفسير والحديث كان للإسرائيليات تأثير ملحوظ، حيث تناقلها العامة بشغف ظاهر، وتناقلها بعض الخاصة بتساهل، وصل في بعض الأحيان إلي حدّ التسليم بها على ما فيها من روايات ضعيفة وأباطيل .

إن كتب التفسير كلها أوردت الإسرائيليات، ولكن على صور منوّعة : فمنها من ذكرها بالسند فأخلى بذلك مسؤوليته عملاً بالقاعدة المشهورة «من أسند لك فقد حمّلك» ، ومنها كتب لا تكتفي بذكر أسانيد الإسرائيليات ولكن تتعقبها بالنقد، ومنها كتب تذكر كل شاردة وواردة من غير إسناد ولا تمحيص، ومنها كتب يهاجم أصحابها أولئك الذين يوردون الإسرائيليات في تفاسيرهم لكنهم في النهاية أوردوا هم الإسرائيليات ولم يعقبوا عليها.[١٩]

ومما حمى التراث الإسلامي من خطر ما في الإسرائيليات من باطل –على ما فيها من بعض الخير– جهودُ الأئمة النقاد الذين كانوا ولا يزالون بالمرصاد يميزون بين الصحيح والضعيف، والمنكر والمعروف، والموضوع المكذوب والثابت المحفوظ، على أصول المحدثين المعتبرة.

أقسام الإسرائيليات

إن أقدم تقسيم للإسرائيليات مبناه على اعتماد ميزان النقد لدى المحدثين تصحيحاً وتضعيفاً:
– ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.
– ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، فذاك مردود.
– ما هو مسكوت عنه لا هو من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذّبه وتجوز حكايته. وهذا التقسيم منسوب إلى ابن تيمية .

وأضاف الذهبي إلى هذا التقسيم قسمين آخرين وكل تقسيم منهما وفق اعتبار معيّن:
– التقسيم الأول: باعتبار الصحة وعدمها و تنقسم إلى ما يلي : صحيح، وضعيف، ومن الضعيف موضوع .

– التقسيم الثاني: باعتبار الموافقة لما في شريعتنا والمخالفة لها وتنقسم إلى ما يلي: موافق لما في شريعتنا ومثاله عن أبي سعيد الخدري:

قال النبي صلى الله عليه و سلم (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة) . فأتى رجل من اليهود فقال بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال (بلى) . قال تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فنظر النبي صلى الله عليه و سلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال ألا أخبرك بإدامهم ؟ قال إدامهم بالام ونون قالوا وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألف.[٢٠]

– مخالف لما في شريعتنا :ومثاله ما نقل عن سفر التكوين من أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه فقال {وما مسنا من لغوب}[٢١] أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .[٢٢]

– مسكوت عنه ومثاله: ما رواه ابن كثير في تفسيره عند تفسير قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً)[٢٣] وذكر قصة .[٢٤]

التقسيم الثالث: باعتبار موضوع الخبر الإسرائيلي وتنقسم إلى ما يلي :

ما يتعلق بالعقائد ومثاله: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول أنا الملك فضحك النبي صلى الله عليه و سلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله –صلى الله عليه و سلم–:

{ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون}[٢٥]

– ما يتعلق بالأحكام ومثاله : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن اليهود جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه و سلم برجل منهم وامرأة وقد زنيا فقال لهم (كيف تفعلون بمن زنى منكم؟). قالوا نحممهما ونضربهما فقال (لا تجدون في التوراة الرجم؟) . فقالوا لا نجد فيها شيئا فقال لهم عبد الله بن سلام كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فقال ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا هي آية الرجم فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة.[٢٦]

– ما يتعلق بالمواعظ التي لا علاقة لها بالعقائد أو الأحكام مثاله: قال وهبُ بنُ مُنبِّهٍ: كانَ في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أنْ مشيا على الماء، فبينما هما يمشيان في البحر إذ هما برجل يمشي على الهواء، فقالا لهُ : يا عبدَ الله بأيِّ شيء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسيرٍ من الدُّنيا : فَطَمْتُ نفسي عن الشهوات، وكففتُ لساني عما لا يعنيني، ورغبتُ فيما دعاني إليه، ولزمت الصمتَ، فإنْ أقسمتُ على الله ، أبرَّ قسمي ، وإنْ سألته أعطاني.[٢٧]

وثمة تقسيم نرتضيه هو:

القسم الأول: المقبول، بأن علمت صحته فلا مانع من حكايته ومثاله:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين. أنت عبدي ورسولي. سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا .[٢٨]

القسم الثاني: المردود، بان علم كذبه لمناقضته لما عرفنا من شرعنا، كالأخبار التي فيها طعن بعصمة الأنبياء، وهذا القسم لا يصح قبوله وروايته إلا مقترنا ببيان كذبه وبطلانه، وهو مردود جملة وتفصيلاً سواء كان في المواعظ أم في الأحكام أم في العقائد.

وقد تكلم ابن كثير على موقفه من الإسرائيليات ومنهجه في الأخذ بها في كتابه البداية والنهاية فقال:

"ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه".[٢٩]

وكما ذهب ابن كثير إلى جواز رواية هذا القسم وصرح بذلك في تفسيره تبعاً لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية .
ويعلل البقاعي الأخذ بما لم يثبت وهو مسكوت عليه بأن المقصود الاستئناس لا الاعتماد ، بخلاف ما يستدل به في شرعنا، فان العمدة في الاحتجاج للدين فلا بد من ثبوته، فالذي عندنا من الأدلة ثلاث أقسام : موضوعات وضعاف وغير ذلك فالذي ليس بموضوع ولا ضعيف مطلق الضعف يورد للحجة والضعيف المتماسك للترغيب والموضوع يذكر لبيان التحذير منه بأنه كذب.

ما الموقف من الإسرائيليات ؟
إن مما يميز ثقافة الإسلام أنها ثقافة منفتحة على الثقافات الأخرى تأخذ منها وتمنحها، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، ولكن بضوابط أهمها:

أن لا يتعارض ما يقتبسه مع أصول العقيدة الإسلامية ، وما كان الإسلام يوماً لينغلق ويتقوقع على نفسه، فهو يقبل الآخر؛ يدعوه، ويحاوره بالحجة والبرهان، ويقدر العقل ويخاطبه وفق الأسس المرعية، يقتبس النافع من حضارات الشعوب ، والغاية التي يرمي إليها إنما هي تحقيق السعادة للبشرية، وهذه آراء العلماء في الرجوع إلى الإسرائيليات:

الرأي الأول: جواز رواية الإسرائيليات والأخذ بها وفق ضوابط.
من هنا كانت نظرته إلى التعامل مع الإسرائيليات والإفادة وقد تظافرت الأدلة على القول بجواز النظر في تراث أهل الكتاب والتعامل معه بمنظور إيجابي وها أنا أسوق الأدلة واحداً بعد الآخر:
– قوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٣٠]

هذا الدليل صريح في جواز الرجوع إلى التوراة والاحتكام إليها حين مناقشة الأفكار التي يطرحها أهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم.
وحين ننظر في القرآن الكريم نجد آيات بينات تدعو النبيّ –صلى الله عليه وسلم– والمسلمين أن يرجعوا إلى علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسألوا عن بعض الحقائق التي جاءت في كتبهم وجاء بها الإسلام ليقيم عليهم الحجة ولعلهم يهتدون (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)[٣١] (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)[٣٢]، وغير ذلك مما قصه الله عن بني إسرائيل كذبح البقرة، وقصة التيه، وقصة المائدة، وقصة جريج ، وحديث الغار.

وهذه طائفة من الأحاديث يستدل بها أيضاً:
– روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص (بلّغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[٣٣] والمعنى: لا ضيق عليكم في الحديث عنهم، لأنه تقدم الزجر عن الأخذ عنهم، والنظر في كتبهم ثم حصل التوسع في ذلك النهي قبل استقرار الأحكام. ثم لما زال المحذور وقع الإذن بالسماح بالأخذ من بني إسرائيل. وذهب مالك أيضاً إلى جواز التحدث عن بني إسرائيل بما كان من أمر حسن، أما ما عُلم كذبه وانحرافه فلا ، وهو ما جزم الشافعي به أيضاً، وقال الحافظ

الذهبي : ما المانع من رواية الإسرائيليات عن أهل الكتاب مع قوله "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" وفي الحديث: (ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم)[٣٤] فهذا إذن نبوي في جواز سماع ما يأثرونه في الجملة [٣٥].

واستدل ابن تيمية على أن ابن مسعود وابن عباس كانا في بعض الأحيان يحكون من أقاويل أهل الكتاب لأن رسول الله أباحها لهم بقوله (حدّثوا عن بني إسرائيل ...)[٣٦]

وأما ابن كثير فجعل الحديث محمولاً على الإسرائيليات المسكوت عنها والتي يجوز روايتها للاعتبار.[٣٧]

وذهب المناوي إلى أن المقصود : "بلّغوا عنهم قصصهم ومواعظهم وذلك مما يتضح معناه فإن في ذلك عبرة لأولي الأبصار، ولا حرج عليكم في التحدث عنهم ولو بغير سند لتعذره بطول الأمد، فيكفي غلبة الظن بأنه عنهم".[٣٨]

– وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل كنيسة لليهود وسمع قراءة التوراة حتى أتوا على صفة النبي صلى الله عليه وسلم:عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَعَثَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِدْخَالِ رَجُلٍ إِلَى الْجَنَّةِ، فَدَخَلَ الْكَنِيسَةَ، فَإِذَا هُوَ بِيَهُودَ، وَإِذَا يَهُودِيٌّ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ التَّوْرَاةَ، فَلَمَّا أَتَوْا عَلَى صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْسَكُوا، وَفِي نَاحِيَتِهَا رَجُلٌ مَرِيضٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا لَكُمْ أَمْسَكْتُمْ ؟ » قَالَ الْمَرِيضُ: إِنَّهُمْ أَتَوْا عَلَى صِفَةِ نَبِيٍّ، فَأَمْسَكُوا، ثُمَّ جَاءَ الْمَرِيضُ يَحْبُو، حَتَّى أَخَذَ التَّوْرَاةَ، فَقَرَأَ حَتَّى أَتَى عَلَى صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُمَّتِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ صِفَتُكَ وَصِفَةُ أُمَّتِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: « لُوا أَخَاكُمْ «[٣٩]

ويفهم من قوله صلى الله عليه وسلم : ما لكم أمسكتم ؟ ثم استماعه للرجل المريض وهو يقرأ التوراة من غير انكار عليه دليل على إباحة الأخذ عن كتب أهل الكتاب.[٤٠]

– وعَنْ أَبِي صَخْرٍ الْعُقَيْلِيِّ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، قَالَ: جَلَبْتُ جَلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ: لَأَلْقَيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَّانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ يَمْشُونَ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَاةَ يَقْرَؤُهَا، يُعَزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَلَى ابْنٍ لَهُ فِي الْمَوْتِ، كَأَحْسَنِ الْفِتْيَانِ وَأَجْمَلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي ؟ «، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، أَيْ: لَا، فَقَالَ ابْنُهُ: إِي وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: « أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ «، ثُمَّ وَلِيَ كَفْنَهُ وَجَنَنَهُ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ.[٤١]–

– وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث عن بني إسرائيل، وكان يتوسع في ذكر الوقائع التاريخية وأخبار الأمم السالفة، وقد أفرد البخاري في صحيحه كتابا بعنوان "أحاديث بني إسرائيل".

– وأخرج مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ « إِنِي وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِىَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ وحدثني حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِى كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ حدثني أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِى الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ فَجَلَسُوا فِى أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لاَ يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ فَقَالُوا وَيْلَكِ مَا أَنْتِ فَقَالَتْ أَنَا الْجَسَّاسَةُ. قَالُوا وَمَا الْجَسَّاسَةُ قَالَتْ أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِى الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ. قَالَ لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلاً فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً – قَالَ – فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ قُلْنَا وَيْلَكَ مَا أَنْتَ قَالَ قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِى فَأَخْبِرُونِى مَا أَنْتُمْ قَالُوا نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِى سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ فَجَلَسْنَا فِى أَقْرُبِهَا فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لاَ يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ فَقُلْنَا وَيْلَكِ مَا أَنْتِ فَقَالَتْ أَنَا الْجَسَّاسَةُ.

قُلْنَا وَمَا الْجَسَّاسَةُ قَالَتِ اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِى الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا وَفَزِعْنَا مِنْهَا وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً فَقَالَ أَخْبِرُونِى عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ قُلْنَا عَنْ أَىِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ قَالَ أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ قُلْنَا لَهُ نَعَمْ. قَالَ أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لاَ تُثْمِرَ قَالَ أَخْبِرُونِى عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ. قُلْنَا عَنْ أَىِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ قَالَ هَلْ فِيهَا مَاءٌ قَالُوا هِىَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ. قَالَ أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ. قَالَ أَخْبِرُونِى عَنْ عَيْنِ زُغَرَ. قَالُوا عَنْ أَىِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ قَالَ هَلْ فِى الْعَيْنِ مَاءٌ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ قُلْنَا لَهُ نَعَمْ هِىَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا. قَالَ أَخْبِرُونِى عَنْ نَبِىِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ قَالُوا قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ. قَالَ أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ قُلْنَا نَعَمْ. قَالَ كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ قَالَ لَهُمْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ قُلْنَا نَعَمْ. قَالَ أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ وَإِنِّى مُخْبِرُكُمْ عَنِّى إِنِّى أَنَا الْمَسِيحُ وَإِنِّى أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِى فِى الْخُرُوجِ فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِى الأَرْضِ فَلاَ أَدَعَ قَرْيَةً إِلاَّ هَبَطْتُهَا فِى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَىَّ كِلْتَاهُمَا كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا استقبلني مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِى عَنْهَا وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلاَئِكَةً يَحْرُسُونَهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِى الْمِنْبَرِ « هَذِهِ طَيْبَةُ هَذِهِ طَيْبَةُ هَذِهِ طَيْبَةُ ». يَعْنِى الْمَدِينَةَ « أَلاَ هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ ». فَقَالَ النَّاسُ نَعَمْ « فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِى حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِى كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ أَلاَ إِنَّهُ فِى بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ لاَ بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ ما هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ». وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ.

قَالَتْ فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–.[٤٢]

– وقد اقتنى بعض الصحابة أسفاراً من أهل الكتاب وروي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منها بما فهمه من حديث رسول الله في الإذن في ذلك، ولكن الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد لا للاعتقاد.[٤٣]

ومن الذين عُنوا بالنقل لتراث بني إسرائيل عبد الله بن سلام.

ورب معترض يقول: وإذا لم نجد هذه الأحاديث والآثار في توراة اليوم فلعله دليل على كذب هذه الأحاديث؟

ويجيب الدكتور مصطفى السباعي على ذلك قائلاً: "فسبيل المؤمن العالم إذا رُوي له حديث صح سنده، أن يعرض ذلك على كتاب الله فإن توافق معه اطمأن قلبه إليه واعتقد، وإن خالفه_ وهذا ما لا وجود له في الأحاديث الصحيحة قطعاً_ جاز له رده مهما كانت الثقة برجاله، وعلى هذا الهدي سار علماؤنا منذ الصحابة..."، وفي ضوء ذلك يذهب السباعي إلى القطع بصحة ما رواه أبو هريرة وغيره من أن التوراة نصت على اسم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .[٤٤]

لماذا يروي المفسرون الإسرائيليات؟

يجيب عن ذلك محمد أبو زهو قائلاً: "وفي تفاسير كبار الأئمة من الإسرائيليات المنسوبة إلى كعب ووهب وغيرهما_ ولا ينبغي أن يذم هؤلاء الأئمة بذكرها في كتبهم لأنهم رووها على أنها إسرائيليات توزن بميزان الشرع، ولأنهم قد ذكروا أسانيدها إلى قائليها تاركين تمييز صحيحها من باطلها لمن يأتي بعدهم كما فعل المحدثون عن تدوين الحديث ، ولأنهم بذكر الإسناد قد برئوا من عهدتهم لأن أحوال الرجال كانت معروفة لمعاصريهم على خلاف ما نحن عليه اليوم "[٤٥]

ويرى القاسمي بعد نقل القول بجواز الحكاية عن بني إسرائيل عن كل من ابن كثير والذهبي والسيوطي، "بأن الإسرائيليات المتداولة في التفاسير تنقل لا اعتقاداً بسلامتها من التحريف المحقق، كلا، بل توسعاً في باب الأخبار للاستشهاد والاعتبار قياماً بالحجة على الخصم من معتقده وناهيك بذلك".[٤٦]

الرأي الثاني: القائلون بعدم جواز الأخذ بالإسرائيليات أو روايتها

ذهب فريق من العلماء إلى أنه لا يجوز التعامل مع الأخبار والوقائع التي مصدرها كتب أهل الكتاب وأوردوا على ذلك براهين وأدلة:-

أدلة المانعين من رواية الإسرائيليات والأخذ بها:

ما جاء في القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بدّلوا كتبهم، وحرّفوها، وأخفوا كثيرا منها. والآيات كثيرة.[٤٧]

حديث جابر* "أن عمر أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب، فقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني".[٤٨]

ويذهب ابن حجر إلى أن النهي هو للتنزيه لا للتحريم، والأولى التفرقة بين من لم يتمكن وينظر من الراسخين في الإيمان، فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك بخلاف الراسخ، فيجوز له، لا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف.[٤٩]

وانتصر المعلمي إلى القول بجواز الاطلاع على الإسرائيليات فقال: وعلى فرض صحة حديث جابر فالغضب كان لسببين الأول: إشعاره بظن أن شريعتهم لم تنسخ ولهذا دفع ذلك بقوله : (لو أن موسى ....)

الثاني : أنه قد سبق للمشركين قولهم في القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[٥٠] أما قوله (لا تسألوا...) فقد بين العلة وهي خشية التكذيب بحق أو التصديق بباطل والعالم المتمكن من معرفة الحق من الباطل بمأمن من هذه الخشية ،وبوضع عمر رضي الله عنه وهو صاحب القصة كان بعد النبي يسمع من مسلمي أهل الكتاب وربما سألهم وشاركه جماعة من الصحابة ولم ينكر ذلك أحد .[٥١]

– روى البخاري عن أبي هريرة : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: :لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا ..."

هذا الحديث فيه دلالة على الجواز وأن المنهي عنه هو التصديق المبني على حسن الظن بصحفهم، والتكذيب المبني على غير حجة ولو قامت حجة صحيحة وجب العمل بها.

– وأخرج البخاري عن ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَب ؟

وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله وغيّروا بأيديهم الكتاب (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ).[٥٢]
أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم.[٥٣]

* الحديث في سنده مجالد بن سعيد، وهو ضعيف. فقد قال الحافظ الذهبي في ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: (قال البخاري: كان يحيى بن سعيد يضعفه. وكان عبد الرحمن بن مهدي لا يروي له شيئا. وكان أحمد بن حنبل لا يراه شيئا. يقول: ليس بشيء). –المحرر–

ولعل السبب وراء موقف ابن عباس لما يدخل بسبب ذلك من فساد على عقول العامة. وكان ابن عباس وبعض الصحابة يسألون المسلمين من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء يمس العقيدة أو يفصل بأصول الدين، وما قبلوا منهم كل شيء سمعوه بل حكموا عقولهم ودينهم، فما اتفق مع الدين والعقل صدقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه . [٥٤]

وبهذا يتبين فساد قول إجناس (اسحق يهودا) جولدتسيهر (ت ١٩٢١) من أن مصادر العلم المفضلة التي كانت عند ابن عباس هما اليهوديان اللذان اعتنقا الإسلام كعب الأحبار وعبد الله بن سلام).[٥٥]

نقد وتمحيص:
ومما يدل أيضاً على أن الصحابة لم يكونوا يتلقفون كل ما يصدر عن أهل الكتاب دون نقد وتمحيص تلك المراجعات العديدة، والردود العلمية على بعض أهل الكتاب، في أمور أنكروها، وردوا عليهم خطأهم فيها.
_ ومن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكر يوم الجمعة فقال: (فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه الله إياه)، فقد اختلف السلف في تعيين هذه الساعة ، وهل هي باقية أم رفعت؟ وإذا كانت باقية فهل هي في جمعة واحدة من السنة ، أو في كل جمعة منها؟

وقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه كعب الأحبار عن ذلك فأجابه كعب بأنها في جمعة واحدة من السنة ، فرد عليه أبو هريرة قوله هذا، وبين له أنها في كل جمعة، ولما رجع كعب إلى التوراة ، وجد أن الصواب مع أبي هريرة فرجع إليه، كما في الموطأ.

الأحكام الخمسة في التعامل مع الإسرائيليات (رأي متميّز)؛
ولعل التعامل مع الإسرائيليات وقبولها والأخذ بها تعتريه الأحكام الخمسة :

فإذا كان الأمر متعلقا بمجادلة أهل الكتاب ومحاورتهم في معتقداتهم وإقامة البراهين على بطلان ما هم عليه وصدق ما عليه دين الإسلام، وكان هذا الأمر متوقفا على النظر في كتبهم وأسفارهم لمعرفة المحرّف منها، صار الحكم واجبا، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو **واجب**.

ويكون **مندوباً** إليه إذا كانت الإسرائيليات لا يوجد فيها ما يكذّب شرعنا بل فيها موافقة لما يدعو إليه شرعنا من العظة والعبرة كالذي جرى على بني إسرائيل من حوادث ووقائع أو كان تصديقاً لما جاء في تراثنا، فالحكم في كليهما الندب، ويشهد لذلك (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) وما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث صحابته عن أخبار بني إسرائيل بل ويصدق أخبارا حدثوا عنها عن بني إسرائيل كما في خبر تميم الداري حديث الجساسة.
وحكم **الإباحة** حيث لا يكون في الإسرائيليات ما يكذب شرعنا ولا يصدقها فلا عبرة بذكرها، إنما هي مجرد أخبار فهذا من القسم المسكوت عنه فلا نؤمن به ولا نكذبه، خشية أن نصدقه وهو

كذب او نكذبه وهو صدق، ولنا أن نتحدث به أو لا نتحدث به، ومن أمثلة ذلك: أسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وكلامهم على عصا موسى من أي شجرة.

الكراهة إذا كانت الإسرائيليات مما لا يكذبها شرعنا بل هي مما يوافق شرعنا لكن القوم انشغلوا بها وقدموها على ما جاء من شرعنا، فهذا مكروه لأنه وإن كانت من حيث المضمون واحداً لكن الانشغال بشرعنا وتقديمه أولى، فالقرآن جاء مصدقا لما بين يديه ومهيمناً كالانشغال بعدد أهل الكهف.

أما **الحرمة** فحين يثبت لدينا أنها كذب وتخالف شرعنا فحرام روايتها والانشغال بها، ومن أمثلة ذلك ما روي من القصص الإسرائيلي التي تتنافى مع عصمة الأنبياء والتي لا تقبل شرعا ولا عقلا، وفيها إساءة إلى مقام النبوة والى الأنبياء، وهذا حرام بعينه وهو لا شك من الكفر، ومن ذلك أن داوود اطلع على امرأة أوريا أحد القادة تغتسل فأعجبته وتسبب في قتل أوريا في سبيل أن يتزوجها وهي قصة باطلة سندا ومتنا.[٥٦]

قال الشيخ محمد أبو زهو: " وأما إذا أخذت الإسرائيليات على غير المنهج الشرعي كأن صدق الآخذ جميع ما فيها أو كذبه أو كان غير مسلّم بأصول الشريعة وقواعدها أو لم يكن لديه من قوة النظر وشفوف الذهن ما به يستطيع أن يميز بين حقها أو باطلها أو جعلها من موارد الشريعة يأخذ عنها العقائد والأحكام، فإنه يكون لها أكبر الأثر في فساد العقيدة وتشويش الأفكار، وقد نهى النبي عن ذلك أعظم النهي قال منكرا " كيف تسألون أهل الكتاب ..."[٥٧]

<u>الذين أسلموا من اليهود والنصارى</u>

إن أي باحث منصف لا ينكر أن الكثير من الإسرائيليات قد دخلت في الإسلام عن طريق أهل الكتاب الذين أسلموا، وأنهم نقلوها بحسن نية، ورغم ما فيها من نقل لتراث فيه موافقة لما عندنا، إلا أنه لا يُنكر أيضاً أثرها السيئ في كتب العلوم ، وأفكار العوام من المسلمين .

وقد أسهم **عبد الله بن سلام و كعب الأحبار و وهب بن منبه** وأضرابهما – ممن أسلموا وحسن إسلامهم– في نقل كثير من الإسرائيليات وكانوا ثقاة أخيار:

فعبد الله بن سلام كان من خيار أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومن علماء أهل الكتاب الذين جمعوا علم التوراة وعلم الإنجيل ، ولا يوجد من أئمة الإسلام ، وعلماء الحديث الذين نقدوا الرجال من ناله بتهمة ، أو مسَّه بتجريح، بل وجدناهم يعدلونه ويوثقونه، ولهذا اعتمده البخاري وغيره من أهل الحديث، مما يدل على مبلغ علمه وسلامة دينه .

وأما كعب الأحبار فهو من التابعين الأخيار ، وقد أخرج له البخاري و مسلم وغيرهما ، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام ، واتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيقه ، فترجم له النووي في تهذيبه بقوله : «اتفقوا على كثرة علمه وتوثيقه» ، ولذا لا تجد له ذكراً في كتب

الضعفاء والمتروكين.

والمتتبع لحياة كعب في الإسلام ، ومقالات أعلام الصحابة فيه ، ومن تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم ، يجد ما يدحض هذه الفرية ويرد هذه التهمة، ويشهد للرجل بقوة دينه ، وصدق يقينه، وأنه طوى قلبه على الإسلام المحض ، والدين الخالص. ولا يعكر عليه قول معاوية في حقه – كما في الصحيح – : «ان كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»، فهذا الكلام لا يخدش في ثقة كعب وعدالته ،بل إن في ذلك تزكية من معاوية وثناء عليه بأنه أصدق المحدثين عن أهل الكتاب ، وقول معاوية: «وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»، لا يراد منها اتهامه بالكذب ، وإنما المقصود أن في بعض الأخبار التي ينقلها بأمانة ما لا يطابق الواقع، فالكذب حينئذ مضاف إلى تلك الكتب التي ينقل عنها لا إلى كعب.

وبهذا التوجيه وجه أئمة النقد والرجال عبارة معاوية فقال ابن حبان في الثقات : « أراد معاوية أنه يخطئ أحياناً فيما يخبر به ولم يرد أنه كان كذاباً»، وقال ابن الجوزي: « المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً، لا أنه كان يتعمد الكذب، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأحبار»[٥٨]، وقال ابن كثير في تفسيره: « يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحفه، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض»[٥٩].

وأما **وهب بن منبه** فهو من خيار التابعين وثقاتهم، أخرج له البخاري ومسلم، ولا يُعلم أحد من أئمة هذا الشأن طعن فيه بأنه وضاع ودسَّاس ، بل رأيناهم يوثقونه ، فقد وثقه أبو زرعة والنسائي والعجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي» كان ثقة صادقاً كثير النقل من كتب الإسرائيليات ...».[٦٠]

ولسنا ننكر رواية كعب ووهب وغيرهما للإسرائيليات، ولكن يجب قبل أن نجازف بالحكم عليهم أن نأخذ بعين الاعتبار أمرين هامين:

الأمر الأول : أن ما رووه من أخبار بني إسرائيل، لم يسندوه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولم يكذبوا فيه على أحد من المسلمين، وإنما كانوا يروونه على أنه من الإسرائيليات، ويحكونه غير مصدقين له، بل كان موقفهم منها كموقف الصحابة رضي الله عنهم، فما جاء على وفق شرعنا صدقوه، وما خالفه كذبوه، وما لم يوافق أو يخالف شرعنا توقفوا فيه وردوا علمه إلى الله عز وجل.

الأمر الآخر : أنه ليس كل ما ينسب إليهم صحيحاً ، فقد اختلق الواضعون عليهم أشياء كثيرة، فاتخذوهم مطية لترويج الكذب وإذاعته بين الناس، مستغلين شهرتهم العلمية الواسعة بما في كتب

أهل الكتاب، ثم تناقل هذه الأخبار بعض القصاص والمؤرخين والأدباء، وبعض المفسرين على أنها حقائق، من غير أن يتثبتوا من صحة نسبتها إلى من عزيت له.

يقول الشيخ أحمد شاكر –رحمه الله–: «وبعض أهل عصرنا تكلم فيه – يقصد وهب بن منبه – عن جهل ، ينكرون أنه يروي الغرائب عن الكتب القديمة، وما في هذا بأس، إذ لم يكن ديناً، ثم أنى لنا أن نوقن بصحة ما روي عنه من ذلك وأنه هو الذي رواه وحدَّث به».

فهل بعد هذا كله نقبل كلام «جولدتسيهر» ومن مشى في ركابه، ونعرض عن كلام أئمة الإسلام، وجهابذة المحدثين والنقاد، الذين وثّقوا هؤلاء الرواة، وخرجوا أحاديثهم في كتبهم التي تلقتها الأمة بالقبول جيلاً بعد جيل، فضلاً عن أن نتهمهم بالمكر والدهاء والكيد للإسلام وأهله، اللهم إنا نبرأ إليك من ذلك .

خاتمة:

- الإسرائيليات هي أخبار أو حوادث نقلت إلينا عن طريق أهل الكتاب مع مراعاة معرفة أن نسبتها إلى المعرف على سبيل التغليب.
- إن تاريخ دخول الإسرائيليات بدأ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وتفاقم في عهود التابعين ومن بعدهم.
- إن أسباب تسرب الإسرائيليات لم تنحصر في أهل الكتاب، بل تعدى ذلك إلى الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص والصحابة الذين أسلموا وكانوا من أهل الكتاب ومن جاء بعدهم.
- من الإسرائيليات ما هو مقبول موافق لشريعتنا فنأخذ به، ومنها غير موافق لها ويناقضها فهو مردود، ومنها ما هو مسكوت عنه فتجوز حكايته.
- إن المنهج الذي خطه العلماء في التعامل مع الإسرائيليات يثبت انفتاح الثقافة الإسلامية على تراث أهل الكتاب والتبادل المعرفي والثقافي بين المسلمين وغيرهم.

المصادر:

- ابن حجر، أحمد بن علي، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق محمد فؤاد ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩
- الياس، خليل إسماعيل، **كعب الأحبار وأثره في التفسير**، دار الكتب العلمية.
- أبو عزيز، سعد يوسف، **الإسرائيليات والموضوعات قديما وحديثا**، المكتبة التوقيفية.
- البخاري، محمد بن إسماعيل ، **صحيح البخاري**، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى (ج ١٣ مقدمة في التفسير)** جمع عبد الرحمن بن قاسم ،ط١
- جولدتسيهر، إجناس، **مذاهب التفسير الإسلامي** ، مطبعة المدينة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٥م
- الذهبي، ابو عبد الله محمد بن أحمد، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت
- الذهبي محمد حسين _ **الإسرائيليات في التفسير والحديث**، مكتبة وهبة.
- _ **التفسير والمفسرون**، مكتبة وهبة.
- ابن الأثير الجزري، **الكامل في التاريخ** ، المطبعة الأميرية.
- ابن حنبل احمد بن محمد ، **المسند**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١
- ابن رجب، **جامع العلوم والحكم**، تحقيق ماهر ياسين الفحل، شرح الحديث الثاني عشر
- أبو زهو، محمد، **الحديث والمحدثون** ط١ مطبعة مصر ١٩٥٨
- السباعي، مصطفى، **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦١
- أبو شهبة، محمد بن محمد، **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير** ، مكتبة السنة.
- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار طيبة للنشر، ١٤٢٠-١٩٩٩
- -**البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت
- المعلمي اليماني، عبد الرحمن، **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة**، المطبعة السلفية ، القاهرة، ١٣٧٨
- المناوي، محمد عبد الرؤوف، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط١ ١٤١٥
- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، **صحيح مسلم** ، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت

الهوامش

١ سورة فصلت آية ٤١-٤٢
٢ سورة الحجر آية ٩
٣ سورة المائدة آيه ٤٦
٤ متفق عليه، واللفظ للبخاري.
٥ سورة آل عمران اية ٦٤
٦ والنسبة فيها إلى إسرائيل وهو يعقوب بن إسحق ، وإليه ينسب اليهود فيقال «بنو إسرائيل» أنظر (المائدة آية ٧٨ والإسراء آية ٤ والنمل آية ٧٦)
٧ الذهبي محمد حسين الإسرائيليات في التفسير والحديث، مكتبة وهبة، ط ٤(١٤١١-١٩٩٠) ص١٣.
٨ عبد الحميد محسن ، الألوسي مفسراً، مطبعة المعارف ، ط ١٣٨٣ _١٩٦٩ ص٢٨٢.
٩ إلياس خليل اسماعيل ، كعب الأحبار وأثره في التفسير، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٧ ط١ ص١٠٨.
١٠ الذهبي ، التفسير والمفسرون ١-١٦٥ ، وأبو شهبة، محمد بن محمد ،الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص١٤
١١ العهد القديم، الإصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤-٥
١٢ الذهبي، محمد حين، التفسير والمفسرون ١٦٨- ١٦٩ بتصرف
١٣ الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث ١٦_١٧
١٤ ابن كثير، اسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم ١|٣٢٦
١٥ الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث ١٦_١٧
١٦ المصدر السابق ٢١- ٢٢ بتصرف
١٧ ابن الأثير، الكامل، المطبعة الأميرية ٧_٢٦
١٨ انظر الرحيلي، ابراهيم عامر، (بذل المجهود في مشابهة الرافضة اليهود) أوضحت تأثير اليهود في عقيد الرافضة. وانظر كذلك البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٢٢٣-٢٢٤ ط المعارف
١٩ الذهبي ، محمد حسين ، الإسرائيليات في التفسير والحديث ٩٥- ٩٦ بتصرف
٢٠ البخاري رقم(٦١٥٥)
٢١ سورة ق آية ٣٨
٢٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧-٤٠٩) دار طيبة للنشر ١٤٢٠-١٩٩٩
٢٣ سورة البقرة آية ٦٦
٢٤ المصدر السابق (١-٢٩٦)
٢٥ البخاري رقم (٤٥٣٣)
٢٦ البخاري رقم(٤٢٨٠)

٢٧ ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق ماهر ياسين الفحل، شرح الحديث الثاني عشر (ج١٤ صفحة ٩)
٢٨ البخاري رقم (٤٥٥٨)
٢٩ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١ ص٥
٣٠ سورة آل عمران آية ٩٣.
٣١ سورة الزخرف الآية ٤٥
٣٢ سورة الاعراف اية ١٦٣
٣٣ البخاري رقم ٣٢٧٤
٣٤ رواه أبو داود في سننه برقم ٣٦٤٤، وهذا نص الحديث: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ ثَابِتٍ الْمَرْوَزِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي نَمْلَةَ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَتَكَلَّمُ هَذِهِ الْجَنَازَةُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُ أَعْلَمُ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ إِنَّهَا تَتَكَلَّمُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ
٣٥ الذهبي، محمد بن أحمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ص ٣-٤٧٠
٣٦ ابن تيمية ، مقدمة في أصول التفسير ص ٤٥
٣٧ ابن كثير، البداية والنهاية ١-٥
٣٨ المناوي ، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية –بيروت ،ط١ ١٤١٥-١٩٩٤(١٢-٤٣٨)
٣٩ مسند أحمد ٧-٦٤ رقم ٣٩٥١
٤٠ ابو شهبة ، الإسرائيليات والموضوعات ص ٧٣-٧٤
٤١ مسند أحمد ٣٨ ص٤٧٦ رقم ٢٣٤٩٢
٤٢ صحيح مسلم (٨-٢٠٣رقم ٧٥٧٣)
٤٣ ابن تيمية، الفتاوي الكبرى ج ١٣- ٣٩٦
٤٤ السباعي، مصطفى –السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ٤٣-٤٤
٤٥ ابو زهو ، الحديث والمحدثون ص ١٩١
٤٦ القاسمي ، محمد جمال الدين ،محاسن التأويل ج١ ص ٤٤-٤٥
٤٧ النساء آية (٤٦) المائدة آية (١٣ ،٤١)
٤٨ احمد (٣- ٣٧٨)
٤٩ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٣ ص٥٢٥
٥٠ سورة الفرقان آية ٥
٥١ المعلمي اليماني ، الأنوار الكاشفة ، ص١٢٢
٥٢ سورة البقرة آية ٧٩
٥٣ البخاري، ٢- ٩٥٣
٥٤ الذهبي، التفسير والمفسرون ج١ ص٧٣-٧٤

٥٥ جولدتسيهر، إجناس، مذاهب التفسير الإسلامي ص٨٦
٥٦ الياس، خليل اسماعيل، كعب الأحبار وأثره في التفسير ، دار الكتب العلمية ١٤٨-١٥٢
٥٧ الحديث والمحدثون ، أبو زهو – ص ١٨٧
٥٨ فتح الباري ١٣- ص٢٦٠،٢٥٩
٥٩ تفسير القرآن العظيم، ج ٥ ص ١٩٠
٦٠ الذهبي، ميزان الإعتدال في نقد الرجال، ج٧، برقم ٩٤٤١.

موقف العقيدة الإسلامية
من أهل الكتاب

الأستاذ الدكتور حافظ محمد حيدر الجعبري *

الحمد لله رب العالمين، وبه تعالى نستعين،

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ»[1].
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»[2] .

وعن أم المؤمنين عائشة «رضي الله عنها» قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السماوات والأرض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[3].

وبعد : فإن الغرض الذي من أجله كتبت هو أن كثيرا ممن كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم اختلفوا اختلافا كثيرا، فبعضهم أكثر و أطال حتى شغل عن الفهم، وبعضهم قلل وقصر حتى تعذر الفهم على كثير من أهل الفهم.

وقد دعاني ذلك إلى أن أقف على حقيقة أصل الافتراق وسببه بين الأمم، وقد كان الناس أمه واحدة على دين واحد اسمه عند الله الإسلام. والإسلام واحد وأمره واحد وحبله واحد .. إنه إسلام إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

أما أصل الافتراق ففي توحيد الله عز وجل وفي التوجه إليه وحده في العبادة وفي الثناء عليه وفي الدعاء والسؤال. وهو أصل كل ملة ونحلة.

وأما سبب الافتراق فيعود إلى البغي بين الناس من بعضهم على بعض لما في نفوسهم من الكبر والحسد، وهو راجع إلى الجهل بما مع الآخر من الحق، أو إلى تصميم البعض على إتباع العوائد والوقوف عند حد الموروثات المألوفات عن الآباء والأجداد فيقلدها وان فسدت أو كان فيها ما يخالف الحق.

---

* محاضر في جامعة الخليل

قال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»[٤]

فالأية الكريمة تحدد سبب الإختلاف إلى البغي، والبغي كلمة قد تكون مبهمة على كثير من الناس، فتحتاج إلى توضيح، ويمكنني أن أوضحها بذكر ثلاثة أسباب رئيسة يرجع إليها البغي هي :

السبب الأول : الانحراف الفكري عن منهج التفكير السليم، ويكون ذلك بواحد من العوامل التالية :

١. المغالاة في تقديس العقل وتقدير قيمته وجعله يفكر في مساحة أوسع من المساحة المخصصة له.
٢. التقصير في استعمال العقل والحجر والتضييق عليه إلى حد غلبة الجهل على استخدام العقل، وهذا اسميه «التقوقع أو التحوصل الفكري»
٣. تقديس آراء العلماء إلى حد يعتقد الإنسان في نفسه، أو يعتقد فيه، أنه من أهل العلم «اللدّني» أي من لدن الله عن اللوح المحفوظ .
٤. التقليد الأعمى بلا وعي أو تفكير، والتعصب له .
٥. الدخول في فلسفات ناقصة تافهة كفلسفة إنكار عالم الغيب أو فلسفة قياس الغائب غير المحسوس على المشاهد المحسوس ومعلوم ان كل ما هو من علم الغيب الدائم على خلاف ما هو من علم المشاهد الذي يطل العقل عليه بواسطة الحواس الخمس .

السبب الثاني : الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم، ويكون ذلك بواحد من العوامل التالية :

١. عامل الكبر، قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[٥]
٢. عامل الحسد، قال تعالى « وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ»[٦]
٣. عامل الشذوذ النفسي من بغض ومقت وسخط، وحقد وضغينة وغل وغير ذلك من نوازع النفس ودوافعها، قال تعالى « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » [٧].

السبب الثالث : ضعف إرادة الإنسان أمام سلطان قوي جائر، تكون له سلطة سياسية أو اقتصادية او اجتماعية أو روحيه، توجه الإنسان ضعيف الإرادة إلى أرباب مختلفين لا إلى رب العالمين، قال تعالى عن فرعون: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» [٨].

أقول : نعم لهذه الأسباب وعواملها عاد الناس مختلفين، وكان كل صاحب مخالفة يدعو غيره إلى

ما هو عليه من دين ومذهب ويطالبه بالموافقة عليه والدخول فيه، فمن وافق ودخل فهو المصيب المهتدي، ومن خالف فهو المخطئ الضال، وبسبب ذلك تنشأ العداوة والبغضاء بين الناس، وقد يفترقون في الأبدان ويحدث بينهم حرب وعداوة، ويكون لكل فريق موقف من الفريق الآخر.

موقف العقيدة الإسلامية من أهل الكتاب

يسبق الحديث عن موقف العقيدة الإسلامية من أهل الكتاب الحديث عن شيئين إثنين:
أولاهما : من هم أهل الكتاب ؟
الثاني : ما موقف أهل الكتاب من العقيدة الإسلامية ؟

وهما شيئان ضروريان لنتبين أمراً مهما هنا وهو هل وقفت العقيدة الإسلامية من أهل الكتاب وقفة موضوعية فيها الحيدة والإنصاف؟ أو وقفت موقفا آخر مبنيا على الفعل وردة الفعل كما هو الحال عند غير أهل العدل والإنصاف؟

من هم أهل الكتاب ؟

المراد بأهل الكتاب عموما كل أمة جاءها نذير ونزل عليها كتاب تقرؤه. ولما آل أمر أهل الكتب قبل اليهود والنصارى إلى الاندراس والإندثار صار مصطلح « أهل الكتاب» علما على أتباع موسى و عيسى عليهما السلام، وسموا باليهود والنصارى، بما هم عليه من فرق و طوائف وفيهم جاء حديث الافتراق عن الرسول (صلى الله عليه وسلم): « افترقت اليهود احدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[10].

وليس المراد هنا الحصر في العدد المذكور وإنما المراد الكثرة الكثيرة حسبما هو في معهود لغة العرب عند استعمال العدد سبعة وسبعين وسبعمائة .. الخ.

هذا هو المفهوم المراد من استعمال أهل الكتاب فيما ورد في القرآن والحديث النبوي عند أهل الإسلام وهم:– اليهود والنصارى أهل التوراة والإنجيل.

ومعلوم أن القرآن الكريم قسم أهل الكتاب من حيث الإيمان وعدمه إلى قسمين:

١. قسم صدق وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» [9].

---

١٠ في دراسة حديثية إسنادية لحديث الإفتراق (بحث محكم في مجلة جامعة صنعاء للقانون والدراسات الإسلامية، العدد العاشر، 2009) خلص د. حاكم المطيري إلى أن "كل طرق هذا الحديث مناكير وغرائب ضعيفة ومنكرة، وأحسنها حالا حديث أبي هريرة وهو حديث حسن، مع تساهل كبير في تحسينه" ، وأن ابن تيمية غمز في قوته مع أنه يصححه، ونقل عن الشوكاني قوله أن زيادة "كلها في النار إلا واحدة" لا تصح مرفوعة ولا موقوفة. –المحرر–.

وهؤلاء كان لهم موقف من العقيدة الإسلامية يحمدون عليه.

٢. قسم لم يصدق ولم يؤمن وكفر قال تعالى : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » [١٠]

هؤلاء كان لهم موقف من العقيدة الإسلامية لا يحمدون عليه.

وسنبين موقف هؤلاء وهؤلاء وما هم عليه في الواقع ونفس الأمر.

موقف أهل الكتاب من العقيدة الإسلامية

حتى نتبين موقف أهل الكتاب من العقيدة الإسلامية نلخص العقيدة الإسلامية في انجذاب النفس الإنسانية إلى ثلاثة حقائق مهمة وضرورية للنفس الإنسانية في كل أحوالها. هي:

الحقيقة الأولى: انجذاب النفس الإنسانية إلى الله تعالى، ويكون ذلك بشهادتها الأولى وهي: (لا إله إلا الله) شهادة حق تقوم على المبادئ الثلاثة التالية:

المبدأ الأول : مبدأ الصمدية. ولا يتحقق هذا إلا بحاجة الإنسان إلى الله في كل أحواله وعدم حاجة الله إليه في كل حال. وهذا المبدأ يقابله عدم الصمدية عند اليهود مثلا بقولهم : «إن الله فقير ونحن أغنياء»[١١] .

المبدأ الثاني : مبدأ عدم التولد ولا يتحقق هذا المبدأ بالتولد السلالي كتولد فلان من فلان، أي الابن والأب، كما هو عند اليهود والنصارى، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله. بل ذهب الفريقان الى أبعد من ذلك حين قالوا : نحن ابناء الله، قالها اليهود بناء على انهم ابناؤه على الحقيقة، ومن عداهم أميون، وقالها النصارى بناء على رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٣:٢٦) حيث قال: « ٣: ٢٦ لانكم جميعا ابناء الله بالايمان بالمسيح يسوع».
ومبدأ عدم التولد لا يتحقق أيضا بالتولد التركيبي كما في المركبات الكيميائية كتولد الماء من الهيدروجين والأوكسجين مثلا.

المبدأ الثالث : مبدأ استحالة المماثلة، ولا يتحقق هذا المبدأ الا باستحالة المكافأة والمضاهاة بين الله وبين خلقه، لا في ذاته ولا في اسمائه ولا في صفاته ولا في افعاله، قال تعالى : «لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»[١٢].

وهذا المبدأ يقابله عند اهل الكتاب المماثلة بين الله وبين الانسان كما هو في العهد القديم في سفر التكوين: (خلق الإنسان على صورته كمثاله) (على صورة الله خلقه) (لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا). وهي مماثلة في الشكل والصورة، واما المماثلة في بعض الصفات كصفة العلم كما في قولهم :(هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا يميز بين الخير والشر).

هذا المبدأ عدا عن المماثلة في التعب والأكل والبكاء والحزن والندم والأسف ..الخ .

الحقيقة الثانية :انجذاب النفس الإنسانية إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويكون ذلك بشهادتها الثانية وهي (محمد رسول الله) شهادة حق تقوم على المبادئ الثلاثة التالية :

المبدأ الأول : مبدأ بشرية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الإنسان المصطفى وهو في أعلى رتبة الإنسانية، ليس بإله ولا ابن إله، ولكنه عبد الله ورسوله، فطبيعته ومشيئته بشرية وذلك في مقابل نظرة اليهود إلى الله على أنه أشبه بشيخ قبيلة، يحضن أولاده المحبوبين اليه، ونظرة النصارى إلى نبي الله عيسى على أنه ليس كسائر الناس في طبيعته ومشيئته على خلاف بينهم.

قال تعالى « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»[١٣].

المبدأ الثاني : مبدأ عصمة الرسول عليه السلام من الوقوع في الخطأ والخطيئة، وذلك في مقابل خطايا الانبياء الآباء والأنبياء الملوك، وارتكابهم فواحش الزنا والقتل بل وعبادة الأوثان أمام عين الرب كما هو عند اليهود في العهد القديم فهو عين ما يؤمن به أهل الكتاب الآخرون.

المبدأ الثالث: مبدأ ختم النبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

الحقيقة الثالثة: حقيقة انجذاب الروح إلى استعلام (معرفة علم) ما يكون بعد الموت وبخاصة إلى ما أعد الله للإنسان من نعيم أو عذاب. وهذه الحقيقة تقوم على المبادئ الثلاثة التالية:-

المبدأ الأول : مبدأ ضرورة التصديق باليوم الآخر للنفس البشرية في كل أحوالها، حيث إن الإيمان بهذا اليوم يعين العقل والإرادة على ضبط النفس للشهوة، فيفعل الإنسان الخيور (جمع خير) ويبتعد عن فعل الشرور.
وذلك في مقابل عدم ذكر اليوم الآخر عند اليهود وعدم معرفتهم لتفاصيل ما يكون فيه من سؤال الملكين ونعيم القبر وعذابه والبعث والنشر والحشر والعرض على الله والشفاعة العظمى

والحساب والصراط والجنة وما أعد الله فيها للطائعين والنار وما اعد الله فيها للعاصين.

المبدأ الثاني: مبدأ أن يكون اليوم الآخر هو الواقع الحق، والحق الواقع لكل الناس مؤمنهم وكافرهم. وذلك في مقابل حصر هذا اليوم على فريق من صالحي اليهود يقومون مع المنتظر (المسيح) وعليهم تقوم الساعة أي على الصالحين فقط.

المبدأ الثالث: مبدأ الجزاء الرباني العادل لكل إنسان قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [١٤].

وذلك في مقابل الجزاء الذي يقرره المسيح عليه السلام وهو جالس يوم القيامة عن يمين الرب يدخل من يحمل الصليب الجنة، ومن لا يحمله لا جنة له .

وعند اليهود يكون جزاء الذين يبعثون من الصالحين المس البسيط بالنار ثم يدخلون الجنة، يأكلون من لحم الحوت وطير الإوز ويشربون من الخمر المعتق.

وبعد :

فهذا بيان لجوهر العقيدة الإسلامية مجمل، وهو مجمل اعتقاد أهل الفرقة الناجية، فما موقف أهل الكتاب منه ؟

موقف أهل الكتاب من العقيدة الإسلامية

كنا قسمنا أهل الكتاب إلى اليهود والنصارى وهذا موقفهم على الجملة والتفصيل:-

أما اليهود فكان موقفهم من العقيدة الإسلامية هو الرفض التام لها، وعدم الاعتراف بها. ويمكن تقسيم موقف اليهود من هذه العقيدة إلى ثلاثة أقسام هي:

١. قسم آمن بالذي جاء به محمد وهؤلاء قلة قليلة عرف منهم عبد الله بن سلام، وكعب الاحبار، ووهب بن منبه وغيرهم.
٢. قسم آمن بالذي جاء به محمد وجه النهار وكفر به آخره. وهؤلاء منافقون مخادعون.
٣. قسم رفض الإيمان بما جاء به محمد أول النهار وآخره. وهؤلاء هم أكثر اليهود وهم كانوا يعرفون الحق الذي جاء به محمد ولكنهم تنكروا له وأنكروه مع ما ورد عندهم من بشارات به يكفينا أن ننبه هنا إلى واحدة منها فقط، وهي ما جاء في سفر التثنية من حديث بين نبي الله موسى عليه السلام وبين الله تعالى، وهذا نصه مترجما: «قد أحسنوا اليوم فيما تكلموا سوف أقيم لهم من وسط إخوتهم نبيا مثلك أجعل كلامي في فمه»[١٥].

أقف هنا عند ثلاث كلمات هي: من وسط إخوتهم، نبيا مثلك، أجعل كلامي في فمه.

تفيد الكلمة الأولى بظهور النبي من وسط إخوتهم لا منهم، وإخوتهم هم أبناء إسماعيل (الإسماعيليون).

تفيد الكلمة الثانية بالمثلية بين موسى والنبي المنتظر وهي متحققة بين موسى ومحمد من حيث البداية والنشأة والنهاية، فكلاهما ولد ولادة طبيعية، ومات ميتة طبيعة ونشأ يرعى الغنم وربي في بيت كفر وكلاهما متصف بالأمانة ..الخ.

وتفيد الكلمة الثالثة بمعجزة الكلام وهي معجزة القرآن تخرج من فمه على خلاف معجزة سيدنا موسى وهي اليد والعصا في اليد ومعجزة سيدنا عيسى وهي اليد وما يكون باللمس باليد. والفرق كبير بين اليد وما يكون فيها وبين الفم وما يكون فيه.

هذا هو موقف اليهود من العقيدة الإسلامية، أما موقف النصارى من العقيدة الإسلامية، فقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام أيضا، هي:-

فالقسم الأول قال: إن النبي محمدا أرسل إلى العرب خاصة، وهم قلة كانوا آمنوا بنبوته الخاصة إلى قومه ومن جاورهم من العرب.

والقسم الثاني: وهم الموحدون الذين رفضوا عقيدة التثليث، وتفرقوا في الأمصار، وطاردهم أصحاب عقيدة التثليث –الكاثوليك– بعد أن رفضوا هذه العقيدة على أن تكون هي دين الدولة العام.

وأود هنا أن ألفت الانتباه إلى أمرين :
الأمر الأول : أكد الرسول عليه السلام حقيقة وجود الموحدين وعلى رأسهم آريوس في رسالته إلى قيصر الروم وفيها :

«أسلم تسلم وان لم تسلم فإن عليك إثمك وإثم الآريسيين»[١٦]

أي وتحمل إثمك وإثم ضلال الآريسيين المنتسبين إلى عقيدة التوحيد إن هم ضلوا عن الوحدانية .
الأمر الثاني : ان هؤلاء الموحدين (الآريسين) الفارين بعقيدتهم السليمة وكانوا أغلبية النصارى وجدوا في الإسلام إبان الفتوحات الإسلامية نفس ما هم عليه من إيمان بالله الواحد فلاذوا إليه وبادروا بالدخول فيه سراعا من الضيق الذي كانوا عليه ولعل هذا هو سر دخولهم في الإسلام أفواجا أفواجا في مصر والشام وغيرهما، وبقي من بقي على عقيدة التثليث حسبما قررته مجامعهم. والله أعلم.

القسم الثالث: هم الذين فرضت عليهم النصرانية المحرفة (عقدية التثليث) فانحرفوا عن الوحدانية، فضلا عن أنهم تأثروا بالوثنيات الأخرى من وثنية رومية وغيرها، واستقروا على الرأي الذي اتخذ

المسيح وأمه إلها من دون الله الواحد وهؤلاء هم معظم نصارى اليوم.

وحاصل ذلك أن أهل الكتاب اليوم من يهود ونصارى يجمعهم الموقف الواحد المعادي للعقيدة الإسلامية حيث ظهرت صورة هذا الموقف المخالف في:-

- في عقيدة التوحيد الخالص.
- في عقيدة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه النبي الخاتم.
- في محالفة الوثنين والمشركين والعمل على تشويه سمعة الإسلام المسلمين.

والحق أقول لكم:

أن هذا الموقف المعادي للعقيدة الإسلامية لم نكن نتوقعه من أهل الكتاب وكنا نتوقع منهم شهادة حق في محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وقد طلب الرسول أن يؤدوا الشهادة على وجهها أمام الكافرين المنكرين لرسالته عليه السلام، واستشهد بهم، قال تعالى « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»[١٧].

والمقصود بمن عنده علم الكتاب هنا هم أهل الكتاب من يهود ونصارى، فقد كتموا الشهادة.

أقول : وهذا غير مستغرب، ولا بعيد، فهم الذين سجل عليهم القرآن أنهم كتموا شهادة معرفتهم بالنبي الذي يعرفونه كمعرفتهم بأبنائهم.

ويجوز لي هنا أن أنبه إلى موقف أهل الكتاب بعضهم من بعض، وهي شهادة بعضهم في بعض سجلها القرآن الكريم عليهم وصدقهم فيما يشهدون، قال تعالى « وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»[١٨].

إنه الحق، فقد صدقوا فيما قالوا في ما هم عليه من عقيدة ودين. قال تعالى مصدقا لما قالوا في بعضهم البعض « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين»[١٩]

وعلى الجملة فإن اليهود يعتبرون النصارى من الخوارج ويتبرؤون منهم ولا يقرون بنبوة عيسى عليه السلام، ولا بأنه كلمة الله ولد لغير أب. بينما يعتقد النصارى بالميثاق الذي أخذه الله على موسى (العهد القديم) إلى جانب الميثاق الذي أخذه الله على عيسى عليه السلام (العهد الجديد) وهو الكتاب المقدس عندهم.
أما نحن المسلمون فنتبرأ من عقائد الفريقين حتى يقيموا التوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام ويؤمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولنا

فيهم إن لم يؤمنوا قول نقوله، وموقف نبينه بكل صراحة ووضوح، وهو موقف العقيدة الإسلامية من أهل الكتاب.

موقف العقيدة الإسلامية من أهل الكتاب

سبق وقلت إن من أهم الخصائص للعقيدة الإسلامية أنها عقيدة الحق الواقع والواقع الحق أنها لم تأت في سياق ردة الفعل لموقف أهل الكتاب المعادي لها، المخالف لجوهرها، الذين لم ينصفوها لا في الله ولا في رسوله ولا حتى في اليوم الآخر.

إنها لم تأت لترد على العداوة بالعداوة وعلى الغل بالغل والحقد بالحقد والحسد بالحسد والضغينة بمثلها، ولا لترد على كل عوامل الشذوذ النفسي عن منهج الخلق القويم. إن العقيدة التي كرمت موسى عليه السلام ومن معه وكرمت عيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين العاملين لم تكن تستحق هذا الموقف منهم ولا في أي حال ولا تحت أي ظرف من الظروف.

ومع ذلك كله جاءت العقيدة الإسلامية بمنهج فريد لا مثيل له في موقفها منهم، فحصرت موقفها في خطة مرحلية بدأتها باللوم والعتاب لهم على ما بدر منهم تجاهها من نقمة وضغينة.

قال تعالى «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ»[٢٠]

وبعد اللوم والعتاب طالبت العقيدة الإسلامية من أهل الكتاب أن يقدموا لها العون والتأييد في فهم عقيدة التوحيد الخالص ونبذ الشرك والوثنية والتحرر من البدع والخرافات التي كانت تسود الجزيرة العربية وما جاورها. كما طالبت العقيدة الإسلامية أهل الكتاب أن يشهدوا شهادة حق أمام هؤلاء المشركين الوثنين بنبوة النبي الخاتم الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، واكتفت بشهادة شاهدين : الله، ومن عند علم الكتاب «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»[٢١]

ولكي نكون منصفين عدول، نقول :-
لقد انقسم أهل الكتاب في شهادتهم هذه إلى ثلاثة أقسام، هي :-

قسم شهد شهادة حق ولم يخف ما عنده من علم وهؤلاء قال الله فيهم : «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ»[٢٢].

وقسم كتم الشهادة بداعي أسباب الضلالات الإعتقادية السابقة.

وقسم آمن وصدّق بما جاء به محمد عليه السلام من عقائد وهؤلاء نزل فيهم قوله تعالى: «ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً

وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ»[٢٣].

وقوله : «فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم»، أي آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو شرط الرهبانية المكتوبة عليهم ابتغاء رضوان الله هذا إذا بنينا أداة الاستثناء على الاتصال وكانت الرهبانية مما كتب على النصارى.

وفي هؤلاء قال الله تعالى: «.. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»[٢٤].

وأمام هذه الأقسام الثلاثة، والذين عادوا بعد الإسلام إلى قسم واحد هم (أهل الكتاب) جاءت الشريعة الإسلامية تقرر في ظلال من العقيدة الإسلامية قواعد التعامل معهم بمعاملات تتسم بالإحسان إليهم، قال تعالى: «وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» [٢٥]

وبالتلطف معهم وتيسير أمورهم والتسهيل عليهم في كل حياتهم إلى حد طلب المصاهرة معهم، وعدم التحرج أو التأثم في الأكل من ذبائحهم، وتركهم في مأمن يزرعون ويصنعون ويتاجرون في مقابل جزية بسيطة تؤخذ من أصحاب السعة منهم.

موقف علماء المسلمين – اليوم– من أهل الكتاب

إن من الأهمية والضرورة في هذا المقام أن نتبين موقف علماء المسلمين اليوم من أهل الكتاب وهو موقف فيه اختلاف بينهم.

وإن من غير الحكمة أن لا أبين اختلافهم هذا .

كذلك من غير الحكمة والعدل أن نجامل في غير موطن المجاملة، وكذلك أن نجادل بغير علم «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ»[٢٦].

فإن الإنصاف يدعونا إلى بيان ما نحتاج إلى بيانه من الحق الذي لا مرية فيه من غير أن نمدح ونغالي في المدح أو نقدح ونسرف في القدح، ولا يهمنا بعد ذلك الموافقة أو المخالفة، بل الذي يهمنا هو أن نصل إلى الحق –لا شيء غير الحق – وعند ذلك ندعو إلى اتباع الحق، فإن الحق أحق أن يتبع، ويبقى الباطل باطلا وليس هناك من واسطة بينهما أو التقاء ولو في جزء منهما، قال تعالى: «فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ»[٢٧].

وهنا أستطيع أن أقسم القائمين على العلم الشرعي إلى ثلاثة أقسام:
قسم منهم هم العلماء العالمون بما هو موافق لدين الله تعالى وهم المبينون للكتاب والموفون بعهد الله المفسرون النصوص على مراد قائلها من غير ليّ للنصوص حتى توافق هوى أهل الكتاب.

وقسم منهم هم العلماء الصامتون الساكتون (المتوقفون)، وعندي أن هذا لا يكفي ولا يصلح أن يبقوا ساكتين، فإن البيان في وقت الحاجة لا يصح معه التوقف والسكوت.

وقسم منهم هم من بهرتهم دعوات علماء أهل الكتاب إلى حوار الحضارات والثقافات والديانات فتطلعوا إليها واستجابوا لها، وسواء كان ذلك بوعي أم بدون وعي فهم واهمون جدا، وذلك لثلاثة أسباب رئيسية هي:-

٤. لأن القاعدة التي ينطلق منها أهل الكتاب في عقائدهم غير القاعدة التي ينطلق منها أهل الإسلام في عقائدهم. فإن القاعدة التي ينطلق منها كل فريق هي العقيدة الإيمانية وشتان بين عقيدة التوحيد وعقائد تخالفها.
٥. للنصوص الظاهرة في بيان استحالة اللقاء بين فكرتين لا يجمعهما شيء ولا حتى أقل شيء إلى أن يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.
٦. للنصوص الظاهرة في بيان استحالة اللقاء بين أفكار أهل الكتاب أنفسهم – والواقع يؤيد هذا –، قال تعالى: « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ»[٢٨].

وأسباب أخرى غيرها.

وانه وبناء على ما تقدم أوضح ثلاثة أمور هي:-

فهم أصل اللقاء بيننا وبين أهل الكتاب وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى : «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»[٢٩].

انه أصل اللقاء وسببه الوحيد بيننا وبينهم، وعندئذ لا يكون للحضارة إلا معنى واحدا هو خلاصة علاقة الإنسان بدينه، وهذا لا يقود إلا لشيء واحد هو «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[٣٠]

١. فهم أن الموقف من أهل الكتاب ليس متروكا لاجتهاد المجتهدين، أو تحكمه مصلحة دنيوية مشتركة بيننا وبينهم. وإنما هو مضبوط بضوابط شرعية لا بضرورات آنية فإن عقيدتنا تفرض علينا إذا دخل أهل الكتاب في ذمتنا أن يكونوا مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا وحذار من إلحاق الأذى بهم لقول نبينا صلى الله عليه وسلم : (من آذى ذميا فأنا خصمه، ومن

كنت خصمه خصمته يوم القيامة)[١١]. وإن لم يدخلوا في ذمتنا، فإما أن يكون بيننا وبينهم عهود ومواثيق نراعيها ولا نتنكر لها، إلا إذا تنكروا هم لها ونقضوها، ولسنا المبادرين إلى ذلك ولا بحال من الأحوال. فإن أبوا إلا أن يكون السيف بيننا وبينهم عندها يكون الأمر الثالث مفهوما إنه السيف بيننا وبينهم.

وهنا لا نملك إلا أن ندفع مغالطة جدلية ظل كثير من أهل الكتاب يروجونها، وعلى أعلى مستويات، يقولون : إن دين محمد قام بالسيف .

وندفع هذه المغالطة ونقول:
إنه ليس دين محمد إنه دين الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. كسائر الأديان التي جاء بها الأنبياء جميعا.

ونقول نعم قام بالسيف وسيقوم بالسيف لكن بعد الحجة والبيان، والحكمة والبرهان، قال تعالى في سورة الحديد: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»[٣١].

هذا ما عندنا من السيف ومن آية السيف وهي قوله تعالى «فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم « التوبة : ٥، هذا ما عندنا واليكم ما عندكم فإن أول ما كتب القتال عليكم، على أهل الكتاب من اليهود، قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»[٣٢].

ومع أن أهل الكتاب من النصارى يؤمنون بما في العهد القديم من قتال وحرب وتدمير للمدن إلا أنه يكفي في الرد عليهم أن نذكرهم بما قاله المسيح عيسى عليه السلام، ففي الإنجيل (لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل لأضع سيفا ولأفرق الابن عن أبيه والكنة عن حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته ...الخ)[٣٣].

وختاما أقول : إن السيف الذي حمله محمد صلى الله عليه وسلم ورثه عن عيسى عليه السلام، فسار على مثل ما سار عليه عيسى عليه السلام فكان هو وعيسى كفرسيّ رهان ورضيعي لبان ثدي واحد وعملا في التفريق بين المؤمنين والكافرين ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم.

فواهم كل من يرفع السيف اليوم باسم الأنبياء من غير حجة أو بيان، وواهم كل من يظن أن

١١ أورده ابن الجوزي في الموضوعات، ولكن هنالك أحاديث ثابتة تحرم ظلم المعاهد وقتله –المحرر-.

الدين لا يحتاج إلى السيف .

وواهم من يسلط السيف على رقاب المستضعفين في زوايا الأرض الأربعة اليوم باسم المسيح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

****

الهوامش

١ سورة الانفال، اية ٢٧
٢ سورة المائدة، اية ٨
٣ رواه مسلم برقم ٧٧٠
٤ سورة البقرة، اية ٢١٣
٥ سورة غافر، اية ٥٦
٦ سورة البقرة، اية ١٠٩
٧ سورة الشمس، اية ٧،٨ .
٨ سورة الزخرف، اية ٥٤ .
٩ سورة البقرة، اية ٦٢
١٠ سورة البينة، اية ١.
١١ سورة آل عمران، آية ١٨١
١٢ سورة الشورى، اية ١١
١٣ سورة المائدة، الآيات ١١٦–١١٧.
١٤ سورة الزلزلة، الآيات ٧–٨.
١٥ سفر التثنية: ١٨:١٨
١٦ رواه مسلم في صحيحه برقم ١٧٧٣.
١٧ سورة الرعد، أية ٤٢
١٨ سورة البقرة، اية ١١٣
١٩ سورة المائدة، اية ٦٨
٢٠ سورة المائدة، اية ٥٩
٢١ سورة الرعد، اية ٤٣
٢٢ سورة القصص، الآيات ٥٢– ٥٣
٢٣ سورة الحديد، اية ٢٧.
٢٤ سورة المائدة، الآيات ٨٢–٨٤.
٢٥ سورة العنكبوت، اية ٤٦
٢٦ سورة الحج، اية ٣.
٢٧ سورة يونس، اية ٣٢
٢٨ سورة البقرة، اية ١٤٥
٢٩ سورة آل عمران، اية ٦٤
٣٠ سورة الكافرون، اية ٦
٣١ سورة الحديد، اية ٢٥
٣٢ سورة البقرة، اية ٢٤٦
٣٣ إنجيل متى: ١٠:٣٤